عبد العال الحماصى

للكتاكيت أجنحة

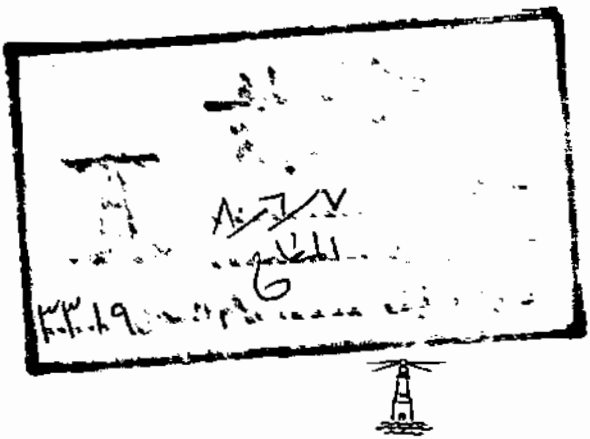

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

محتويات

صفحة

مقدمة ... بقلم ثروت أباظة ٥
الشاعر ... والبنت الحلوة ١١
المحاكمة ٢٠
التذكرة ٣٢
الصعايدة ٤١
الفتى الذى جاء متأخراً ٥١
العجوز ... والدنيا ... وأنا ٥٨
العاملة ٦٦
للكتاكيت أجنحة ٧٥
لحظة فرح ٨٧
الوطن ٩٥
أشياء لا يدركها ١٠٢
امرأة من بورسعيد ١١٠
الطريق الآخر ١١٨
صغيرة ١٣١
العجوز ... وشجرة التوت ١٣٨
قابيل يخنق القمر ١٤٧

مقدمة

بقلم ثروت أباظة

لقد مرت القصة بأطوار كثيرة وهى لم تكن فى يوم من الأيام ثابتة بل هى دائمة الحركة كلما بلغت أفقاً تطلعت إلى أفق يليه وكلما استوفت غاية راحت تنهب الطريق بحثا عن غاية أخرى جديدة . والكتاب يقفون من هذا التغير الدائم موقفًا عجيباً . فهم أنفسهم الذين يغيرون وهم أنفسهم الذين ما يلبثون أن يتركوا ما وصلوا إليه ليبلغوا بفنهم إلى نظرية جديدة لا توشك أن تتمكن حتى يتفضوا عليها . وإذا كان فى انجلترا من يتخذون لأ نفسهم اسم الشباب الغاضب فإن كتاب العالم أجمع يشاركون الغاضبين الاسم الذى اختاروه لأ نفسهم . فالأديب على كل حال إنسان غاضب ولو استراح حيناً من الغضب نضب معينه ، وأصفى فنه ، وتسطحت أعماقه وضحل غوره . ويتمثل عند القصاصين فى الشكل والمضمون جميعاً . فهم أبداً لا يرضون عن الشكل الذى استقرت عليه القصة

وإنما هم دائماً يحاولون أن يخلقوا جديداً فى هذا الشكل ، والمجال أمامهم من ناحية الشكل ضامر لا يتسع لكثير من الحركة ، وقد حدا بهم الضيق أن يحطموا جميع المعايير ليخلقوا اللاقصة واللامعقول .

ونحن فى الشرق ننظر الى الحركات الرائدة فى فن القصة فى الغرب . ويحاول بعض منا أن يواكب هذه الحركات فى تقليد أعمى لا تبصر فيه لا تفكير فتكون النتيجة أن يخرج العمل الفنى مشوهاً لا يمثل كاتبه ولا البيئة التى يعايشها .

وقد طغى هذا الطوفان الغربى حتى جعلنا نشاهد أزمة حقيقية فى كتاب القصة من الجيل الجديد ، فتراهم قد أهملوا التراث العربى وعكفوا على الأدب الغربى وحده يصبون من معينه ويعبدون مقدساته ويقلدون الطور الأخير من كتاباته التى لم تفهم بعد فى الغرب فهى فى الشرق أشد غموضاً وإبهاماً . وحين أراد كتابنا الجدد أن يعبروا خذلهم التعبير فلم يحاولوا أن يكملوا النقص الذى يعانون وإنما راحوا يسخرون من اللغة العربية السليمة محاولين أن يجعلوا العجمى لغة والركاكة أسلوباً ، والعجز فنًّا . ومع هذه الطائفة نشأت طائفة أخرى من الشبان درسوا لغتهم فأتقنوا دراستها ودرسوا الفن الغربى فأحسنوا دراسته ومازجوا بين الأدبين فى فنية وبراعة . وإنى أعتبر هؤلاء بالذات هم الوجه الحقيق للشبيبة من الكتاب .

والأستاذ عبد العال الحمامصى من هؤلاء فهو يمثل جيله خير تمثيل وهو فى الوقت نفسه ليس أعجميًّا فهو لا يحاول أن يتغرب أو يلبس كتاباته القبعة أو يضع فى فمه البيبة حين يحاول التعبير .

فإذا قرأته قرأت شابًّا مصريًّا يحس أحاسيس بلده ويعبر بلسانها ثم هو يصب

فنه بعد ذلك فى قالب حديث غير متأخر . وهذه الممازجة هى التى تجعله يمثل جيله ، وخير ما يفعله الكاتب أن يمثل جيله غير متأخر عليه ولا متجمد دونه .

فإذا قرأنا له قصة « الشاعر والبنت الحلوة » وجدت فناناً يمزج مشاكل نفسه بالموقف الذى يواجهه فى فنية بارعة ودون افتعال أو تعمد . وتجده فى سرده طلق العبارة صادق الحس حتى لتشاركه المشكلة التى يعانيها وتحاول جاهداً أن تجد له الحل فى حيرته حتى إذا انتهت القصة لم تجد أمامك سبيلاً إلا أن تأسف معه ، وتعجز معه فالحياة أقوى منك ومنه والحقيقة لا تعبأ فى كثير أو قليل بمشاعر الشاعر ولا بأزمته .

وهو فى قصته « قابيل يخنق القمر » يمازج بين القديم والحديث فى وعى بصير ، فلا يفوتك وأنت تقرؤها أن تدرك مقدار الأثر الذى تركه الأدب الغربى فى نفس كاتبنا الشاب ولا تستطيع أن تتجاهل من خلال تعبيراته العربية مقدار تأثره بالأدب العربى ، كما تحس أنه هو نفسه ذو موهبة تستطيع أن تمازج بين الفنين وتضفى عليهما جديداً هو نفسية الكاتب وهو شعوره وإحساسه .

وفى قصة « العجوز والدنيا » نجد صورة عميقة من ذلك النوع من القصص التى تترك فى النفس أثراً بعد قراءتها ، كذلك الأثر الذى تتركه أمواج البحر على الساحل القريب فتجعله مخضلاً دائماً نديًّا . ولن يرجو كاتب من قلمه شيئاً أعز من أن يترك فى نفس قارئه شيئاً .

والأستاذ الحمامصى من هؤلاء الكتاب الذين يلقون على مسرح قصصهم نظرة واعية دقيقة ثم هو ينقلها إلى قارئه فى سرد هادئ لا تحس من ورائه أن الكاتب يريد أن يؤكد نفسه أو يحقق ذاته . اقرأ معى هذه القطعة من قصته

« أشياء هو لا يدركها » .

« الشمس تنحدر نحو الغروب وئيدة تعانق فلولها المتكاسلة هامات أعواد الذرة والجسر يمتد طويلاً ويبدو كأنما لا نهاية له وفلاحة وسيمة ينسدل ثوبها الأسود حتى يغطى قدميها ، تتلاحق خطواتها سريعة متعجلة وخلفها يلهث طفلها الصغير وقد رسم التراب المختلط بالعرق على وجهه خيوطاً متعرجة . وقد احتضن إلى صدره جروا هزيلاً بانت ضلوعه . . ومن وراء أعواد الذرة يختلج فى الفضاء عواء الكلاب وثغاء المواشى العائدة إلى النجوع . طفق الجرو ينبح عندما رأى ضفدعة رمادية صغيرة تقفز فوق حافة الترعة بينما تأوه الصغير وهو ينتزع من باطن قدمه شوكة . ثم شرع من جديد يركض خلف أمه بدون أن ينبس بكلمة . . وقد بدا على الأم كذلك أنها غير مستعدة لسماع أى شىء على الإطلاق .

صورة لا يستطيع أى إنسان منا عاش فى الريف إلا أن يحسها وهو فى قصته صورة حية نابضة بفضل الدقائق الصغيرة التى أمسكت بها عينا الكاتب ونقلها قلمه فى هدوء فنى بارع .

وتراه فى قصة « المحاكمة » يؤكد هذه اللفتات الفنية إلا إنه فى هذه المرة لا ينقل إليك صورة خارجية وإنما يقدم نبضة نفسية تمور بالمعانى فهو يقدم إليك شخصية تقف فى قفص الاتهام ينتظرها مصير يترجح بين الموت والحياة ومع ذلك نجد هذه الشخصية لا تفكر فى شىء إلا أن تنتف ذقن شخص كريه وليكن الجحيم فى انتظارها بعد ذلك . وهذه القصة بالذات تقدم مقارنة بين الموت والحياة وهى تبين لنا كيف يكون الموت رحمة فى بعض الأحيان وإن تكن

الفكرة قديمة إلا أن العلاج فيها موفق غاية التوفيق .

ولا أحب أن أعقد مقارنة بين هذه القصة وقصة العاملة التى فى المجموعة . فلعلها القصة الوحيدة التى لم أعجب بها كل الإعجاب فقد أحسست بعد قراءتها أننى قرأتها قبل ذلك عشرات المرات .

ولا أستطيع أن أنسى قصة « العجوز وشجرة التوت » تلك القصة التى تربط بين عناصر الحياة فى ألفة طاغية فلا نملك إلا أن نحس بهذه العاطفة العنيفة التى كثيراً ما تمتد بين الإنسان وسائر المخلوقات وقد صورها الكاتب فى براعة وشاعرية .

وبعد فلعل أهم ما تتسم به هذه المجموعة هو الإنسانية وحب الحياة حبًّا يشيع فى المجموعة كلها حتى حين يثور بالدنيا ويسخط عليها نحس أنها ثورة أب بابنه أو عتب ابن على أبيه فهما تفعل الحياة بالإنسان فهى لا تزال منه كأنها الأب من ابنه أو الابن من أبيه وهيهات هيهات أن يهرب أب من ابنه أو ابن من أبيه .

ثروت أباظة

الشاعر والبنت الحلوة

« الأتوبيس » يسير وكلما قذف من جوفه براكب اندفع إلى الداخل عشرة . . وأنا محشور بين الأجساد فى الممر . . . أتنفس بصعوبة . . . والعرق يتفصد من جبينى كبرميل زيت تخترقه الثقوب فى الشمس . . . وما زالت الصغيرة ذات الشعر الطويل المجدول . . والرموش الكثيفة المشرعة ، عاملة الآلة الكاتبة بشركة المقاولات تخالسنى نظرات حالمة مشجعة . كلما غرست نظراتها فى عينى تأهبت ابتسامتى المترددة لتناجيها . . . ولكن نظراتها سريعاً ما ترتد إلى الطفلة الشقراء التى تجلس بجوار أمها فى المقعد ذاته وتشاكس بأناملها جدائل فتاتى الحلوة . . والعرق ماانفك يغرق عنقى وياقة قميصى . .

وجرفتنى دوامة المشكلة . . . برغم العذوبة التى تشدنى إلى البنت الحلوة فى مواجهتى . . . أعرف ما ينتظرنى . . . لن يقف أحد بجانبى . . سأواجه اللوم

من الجميع . . . وكنت على يقين من هذا عندما قدمت الاستقالة . . لن يوافقنى أحد على هذا التصرف . . . حتى الذين يحيطون بظروفى . . سينبرى أكثر من قريب يجرب فى فلسفته . . لقمة العيش تقضى بأن يتنازل الإنسان عن جانب من كبريائه ليعيش . . ! أن يكون مرنا . . . وأنا بالذات . . لا يهمنى . . قرفت تماماً . . حاولت طويلاً على حساب أعصابى . . . حتى تخربت نفسيتى من الكبت . . ووجدتنى على حافة الجنون . .

البنت الحلوة . .ما زالت نظرتها مغروسة فى عينى . . لا أستطيع أن أصمد لنظراتها الفاتنة . . وديعة . . هذه الصغيرة . . فتاتى الحلوة . . . كصور الملائكة فوق لوحات عهد النهضة . . مترعة عذوبة ورقة . . روحها المرحة تطل من نظرتها تنسكب أشعة ساجية مضيئة . . تعمل على الآلة الكاتبة فى شركة المقاولات التى تحتل الشقة المواجهة للشركة التى أعمل بها . . كانت عزاء تعاستى فى الفترة التى قضيتها أميناً لمخازن أفلام شركة الإنتاج السينمائى التى يملها ويديرها ابن خالتى . . غرفتها فى مواجهة نافذة المخزن تماماً . . . وكنت أخرج غالباً فى مواعيد متقاربة مع خروجها . . فكنا نركب (أتوبيساً) واحداً يقلنا إلى (الجيزة) لتنزل هى فى الميدان وأواصل سيرى إلى « شارع الربيع » . .

كانت نظراتها الحالمة الوديعة تضىء الكآبة التى تحيط بحياتى فى العمل . . وبمرور الأيام لاحظت شدة اهتمامها بى . . ولكننى لم أستطع أبداً أن أقسر نظراتى على التحديق فى عينيها . . كنت أكتفى بأن أنظر لها خلسة . . وفطنت بأنها على استعداد وقابلية لأن تقوم بيننا علاقة حب لو بدأت أنا بالخطوة الأولى . . . ورغم هذا لم نتبادل كلمة واحدة أكثر من التحية العابرة إذا تقابلنا

فى (الأسانسير) أو عند مدخل العمارة . . والابتسامات الخجولة من بعيد . . كنت أرى فى عينيها لهفة لأن أحادثها . . وأنا نفسى كنت تواقاً لهذا . ولكنى كنت أقاوم رغباتى . . ما جدوى علاقة أعرف مقدما أنها ستموت يوما ما . .

نهض أحد الركاب عند (نادى الضباط) فارتمت المرأة البدينة بكل ثقلها فوق المقعد الشاغر بسرعة حتى لا تسبقها المرأة ذات الملاءة . .

نظرت إليها فتاتى ساخطة . . . كانت تتمنى لو أنها كانت غير موجودة . . وجودها فوت على الفرصة لأجلس بجوارها . . تفاهمت نظراتنا بهذا ! .

لوكنت أستطيع الحب . . لكانت هذه الصغيرة حبى . . كل ما فيها يرشحها لأن تكون أميرة الأحلام لشاعر (رومانسى) مثلى يغنى للنجوم . . ويعانق الأطياف فى عصر (الطوابير) والأرغفة ! ! . . كثيراً ما تقت لأن أعيش فى قصة حب تجمل حياتى تضىء السراديب العتمة المقبورة فيها أحلام شبابى وكثيراً ما كنت ألتقى بعيون على استعداد لأن تعطى الحب بإغداق الحرمان ولكنى كنت أنسحب بسرعة ، وإحساسى بالمرارة يتفاقم فى أعماقى . . . حب . . لى أنا . لم يعد الحب وسادة فوق القمر ، الحب فى عصرنا التزامات قاهرة . . وحساب مفتوح عند البقال . والجزار والصيدلية . .

كيف تواتينى الجرأة لأفضى إلى أخى بخبر الاستقالة . . أخى لا يعرف الظروف المحيطة بى فى العمل . . لا يعرف مدى ما عانيته من إذلال لكبريائى وحساسيتى . . فأنا أبغض الشكاية . ، ولن يصدقونى . . لن يتصور أحد أن صاحب الشركة ابن خالتى يمكن أن يسمح بأن أعامل بهذه الفظاظة من موظفيه . . إن ضآلة المرتب لم تكن تهمنى . . كنت عاطلاً أنشد الإقامة فى

القاهرة . . من أجل مستقبلى .

كان وجودى فى « الصعيد » يفوت على نشر إنتاجى . وتأكدت بأن المستقبل فى القاهرة . . فى الصعيد سأظل أعوى فى الهاوية . وحفيت أقدامى حتى أعطانى ابن خالتى هذا العمل عنده واكتشفت أن الجوع كان أفضل من هذا العمل .

من اليوم الأول تأكدت بأن حساسيتى لن تصمد لهذ الوسط . . فضائح تلوكها الألسنة ببساطة . . . كل واحد يفرز حقده بتحقير الآخرين . . . وممثل الدرجة الثالثة يشمخ بأنفه وهو يطلب منى أن أجلب له (الأسانسير) والكبار الذين يتعاملون مع الشركة يحلو لهم إثبات أهميتهم بإهانة الموظفين الصغار أمام الزائرات من الممثلات . . ومفاهيم عالقة المهنة عن السينما والأفلام كانت تفعم نفسى بالاشمئزاز . . (الفيلم مليان خناقات) . هذا هو مفهومهم عن الفيلم الممتاز . . الخناقات . . والرقصات . وأسماء أبطال وصلوا فى الغفلة . . وبالفهلوة . وأشياء أخرى . . وأغتاظ . . وأصمت . . حتى طريقة مغازلاتهم لفتيات (الكومبارس) كانت تقرفنى . . ولو ضبطنى المدير متلبساً بجريمة القراءة تقوم القيامة . . ويوم عمل كامل . . وتحترق أعصابى . . وأتأزم من الداخل مقهوراً . .

تزايد عدد الواقفين فى ممر العربة . . وتنبهت الفتاة إلى الكتب التى أحملها فتناولتها منى عندما كدت أقع من ضغط الأجساد المتزاحمة . . وأومأت لها شاكراً .

يا عصفورتى من أجل أن أراك كنت أحتمل . . من أجل أن تحيى روحى

بابتسامتك قاومت . . معذرة يا حلوة بعد اليوم لن أراك . . قرفت يا صغيرتى تماماً . . إلى حد المرض . . من الأوامر المتعسفة . . من الإهانات . من وسط كل القيم عنده رخيصة . . قرفت من رؤية فتيات يبتذلن أجمل ما فى الأنوثة لكل من له سلطان فى المهنة من أجل أن يشتغلن . . ويقبضن نقوداً . . ويتألقن فى الغد . . أنا لا أصلح للعمل فى هذا الوسط . . قرفت من المخزن . . من ربط حزم «الأفيشات» والمقدمات والصور . . وشحن طرود الأفلام فى المحطة .

وصل الأتوبيس (محطة نوال) . . وبدلاً من أن يخف الزحام . . ازداد عدد الركاب . . إنى أختنق تماماً . . التصق بجلدى القميص . . والصغيرة ما زالت تخالسنى نظرتها . . ثم تخرج من حقيبة يدها منديلها الأبيض الصغير وتمسح به دموع الطفلة التى تناولتها من أمها المحشورة فى الزحام . . حلم عمرى . . طفلة حلوة . . مثل هذه العصفورة . . أعطيها تجربة عمرى . . أعوضها عن كل ما حرمت منه . . وأجدها ثمناً عادلاً لعذابى . . أقاتل العالم كله من أجل أن تكون سعيدة . . ولكن من هى الإنسانة المعتوهة التى تتزوج شاعراً مثلى يحيط به الضياع . . لو ذهبت لأخطب فتاة من أهلها وسألونى عن المهنة التى أرتزق منها . . هل أقول لهم إننى أكتب قصصاً أتعذب من أجل أن تنفذ واحدة منها لترى النور فى صحيفة . . وأقرض قصائد تغنى للإنسان المكروب فى عصرنا . بالتأكيد سيطلبون لى «بوليس النجدة» ! !

سيقع خبر الاستقالة على أمى وقع الصاعقة .

غفرانك يا أمى . . . عذبتك معى . . لم أستطع أن أكون الابن الذى تريدينه . . . لا أعرف غير أن أتشرد وأكتب . . لا أصلح لأى عمل غير هذا

يا أماه . . وسأموت وحيداً فى غرفة مغلقة . . . وربما على قارعة الطريق . . اغفرى لى يا أمى . . عذبتك معى . . أقلقت شيخوختك لهمومى . . وضياعى . . . أعلم أنك ستفعلين المستحيل من أجل أن تدبرى لى نقوداً . . ستحرمين نفسك من العلاج لترسلى لى ثمن الدواء لأقتات هنا . . أنا وحدى أدفع ثمن اختيارى . . . لقد اخترت الطريق الصعب . . وسأمضى وحيداً .

إنى أتخيلك يا أمى عندما يصلك الخبر . . ستعذب قلبك كلمات أعمامى . . كان رأيهم فى دائماً أننى البيضة الفاسدة فى العائلة . . نعم يا أمى البيضة الفاسدة . . كل أبناء العائلة أساتذة . . . ووكلاء نيابة وقضاة . . . ودكاترة ! ! وكلمات الجيران وهم يطلبون لى (الهداية) ستمزق كبدك يا أمى . . وستذهبين إلى أضرحة الأولياء تناشدين الله أن يمحو (وعدى) .

كل هذا كنت أعرفه وفكرت فيه عندما كتبت الاستقالة . . الجوع أهون من المعاملة التى ألقاها . . شكوت للمدير ابن خالتى كثيراً . . . ودائماً كان يخذلنى . . (الشغل كده . . بلاش قنزحة) . . إنه يكرهنى لمسائل عائلية قديمة . . ولولا أنه كان يخشى لوم العائلة لفصلنى من تلقاء نفسه . . . وعندما أرهقنى العمل وطلبت زيادة مرتبى أفهمنى بأن عينى فارغة . كنت أحبه . . وأحترمه لمواقف وطنية مشرفة كانت له فى الماضى عندما كان يتبنى قضايا المضطهدين من حكومات الإرهاب والأقليات . . ما أقسى أن يقابل الإنسان بالكراهية من الذين يحبهم .

الأتوبيس يرتج من (المطبات) والمرأة تضع يدها على قلبها . .

صغيرتى . . ابعدى عينك عنى . . . نظراتك الحالمة تفجر فى قلبى

أشجاناً . . . تثير أشباح أحلامى المشنوقة . . . لا تخدعك (بدلتى) الجديدة . . فأنى هو الذى يدفع للخياط أقساطها . . وربما تظنيننى أحد النجوم ما دمت فى الشركة التى تصنع النجوم . . . أو أحد الذين يكتبون قصص أفلامها ما دمت أحمل معى دائماً تلك الكتب ذات العناوين الغريبة التى تثير انتباهك عندما نتقابل فى (الأسانسير) . . لا يا صغيرتى . . أنا مجرد (المخزنجى) ليس إلا . .

كاد الأتوبيس يصطدم (بالترولى) عند (مجلس الدولة) . . وانطلقت شتائم الركاب للسائق عندما اهتزت العربة بعنف من شدة (الفرملة) . . كيف سأعيش . . أنا لا أصلح لعمل . . كبريائى . . حساسيتى . . تجعلنى غير صالح لأعمال يديرها الذين يؤكدون أهميتهم بإذلال الآخرين . . . أنا لا أصلح لغير كتابة قصصى وقصائدى . كيف سأعيش بالقروش التى تدخل جيبى بعذاب عندما ينشرون قصيدة لى .

لست نادماً . . . لقد اخترت هذا الطريق بمطلق إرادتى . . لم يقسرنى عليه أحد . . . بل حذرونى فى البداية عندما أهملت دراستى وعكفت على القراءة والكتابة . . . . . حذرونى من الوقوع فى المصيدة . . من المضى فى درب العذاب . . مدرس الإنشاء فى المدرسة الثانوية حكى لى قصصاً مخيفة عن عالقة أدركتهم حرفة الأدب فتلقفتهم أفواه الجحيم . . والأديب الكبير الذى كان يراسلنى فى الصعيد حذرنى أيضاً من المصير . . قال لى إنه يعرف راقصة حرب لها ثلاث عمارات فى بيروت بينما صديقه الشاعر الكبير يمشى على قدميه آلاف الأمتار لينال عند صديق (عشوة) . . ولم أهتم بكل هذا . . كان كل ما يهمنى

أن أملك الكلمة . . لست نادماً مهما كان المصير .

كان بيتنا يسوده النكد . . والخلافات المستمرة بين أبى وأمى . بسبب ميراثها وتكرار رسوب أخى . . وهربت من تعاستى إلى الكتب . . أدمنت القراءة . . وبعد ذلك أتاحت لى القراءة أن أكتشف واقعى . . أن أعرف الأسباب التى تجعل حياة الناس شائهة . . وانطلقت بكل أحلامى . . وثوريتى . ويفاعتى أقاتل بالكلمة . . كانت لى آراء يطاردها بعض الذين تحجرت عقولهم فأقنعوا أهلى بأن فساد آرائى التى أدعو لها . . مصدرها الكتب المنحلة التى أقرؤها . . وأصبح وجود الكتاب فى يدى جريمة . . وضللت الطريق أمام غربة روحى وإحساسى بأنى وجدت فى بيئة لا أنتمى إليها . . وأصبح البيت جحيماً . . والمدرسة عذاباً . . وضاع مستقبلى أمام شعورى بالغربة فى بيئة تقتات موروثاتها ! ! .

غادرت المرأة البدينة مقعدها . . وجلست بجوار البنت الحلوة . . العرق يا صغيرتى كحبات الماس فوق جبينك . . نظراتك تعزف على قلبى ألحاناً ستموت . . ستموت يا حلوة . . كنت أحلم بفتاة مثلك . . عندما كنت أعانق أحلام الغد . . كنت أجوب الآفاق . . وخيالك فى خاطرى . . وأحدق فى كل العيون عسى عين تكشف لى فى لهفة الشوق عن سرها . . وتنادينى . . أنا أيها الغريب من تريدها . وكنت أنتوى أن أحكى لها القصة بحذافيرها .

وصل الأتوبيس ميدان الجيزة ، نزلت الصغيرة كعادتها عند «كازينو سان سوسى» قوة ما حرضتنى لأن أهبط خلفها . . نظرت إلى فى دهشة وتألقت الفرحة فى عينيها . . وتمهلت فى سيرها لتعطينى فرصة لأقترب منها . . ولكن

خطواتى ظلت متثاقلة . . مترددة . . ابتسمت لى بحياء . . ثم توقفت عند « عمر أفندى » تحدق فى المعروضات . . ونظراتها الجانبية تهيب بى أن أتقدم . . فى قلبى تنمو أمنية فى أن أقترب منها . . خطرت لى فكرة . . أن أقول لها كلمة . . كلمة واحدة . . أنت حلوة . . كلمة واحدة فحسب . . وبعدها أمضى . . أنت حلوة . . وأذهب فليس درب درباك . . عندما تنتهى أحزان العالم سيبحث قلبى عن مسرات تخصه .

أمى قالت لى مرة أنها ستغادر الدنيا مجروحة القلب . . ما دامت ستموت قبل أن ترى لى بيتاً وزوجة . . وأطفالاً . . تذكرت هذا وطفرت دموعى . ورأت الصغيرة دموعى . وبانت الدهشة فى عينيها . . نظرت إلىّ فى ذهول عندما اقتربت منها كانت الابتسامة مشنوقة فوق ثغرها وهى تخطو إلى الناصية خلف الكازينو بعيداً عن العيون ثم توقفت تحت شجرة . . بلا كلمة امتدت يدى وأمسكت بيدها وأطبقت عليها . . لم تسحب يدها . . تركتها نائمة فى يدى ونظراتها الحائرة تتساءل عن تفسير لدموعى . . وبرفق رفعت يدها إلى فمى وقبلتها . . ثم أفلتها بسرعة وبدون أن أنظر إليها . . استدرت عنها وتركتها تحت الشجرة ذاهلة . . وسرت وحيداً .

كتبت فى أغسطس سنة ١٩٦٣ ونشرت بمجلة « الثقافة » فى نوفمبر سنة ١٩٦٤ .

المحاكمة

قاعة المحكمة مكتظة بناس ذوى أشكال وأحجام مختلفة . . لا شيء مشترك بينهم سوى شراهة الفضول . . وأنا قابع فى القفص الحديدى أحك جرحاً ملتئماً فى ساعدى الأيسر ، وأتأمل وجوههم بشتى الانفعالات البادية عليها وهم يحملقون فى بشراهة حتى لأتوهم نفسى كائناً هلاميًّا قذف به إلى الأرض أحد الأطباق الطائرة . .

نظراتهم تعرينى . . تبدو وكأنما توشك أن تنقض على وتفترسنى ، نظرات دائبة بعضها تطل منه الحيرة ، وبعضها تنطق بالفضول . . بعضها يرثى لى . . وبعضها لا يكتم العداء . . وامرأة بدينة أخرجت ثديها المترهل من فتحة جانبية فى ثوبها المتسخ وطفقت تلقمه رضيعها الملفوف فى « قماطه » الذى تناثرت عليه « ريالته » . . وتهمس فى أذن جارتها الصغيرة بكلام غريب يتحدث عن

الخديعة . و « المقلب » الذى شربته . والقلوب التى تحجرت فى هذا العالم .

مقلب . . وخديعة . . عن أى مقلب تتحدث المرأة البدينة ؟

خدعت . . ربما . . أخذوا يخدرونني بكلماتهم الضخمة . الشرف . . العار . . التقاليد . . كرامة العائلة . . رجولتى . . وواجبى . . إن احتمال إعدامى لا يهولنى بقدر ما يعذبنى إحساسى بأنى تخليت عن القيم التى كنت أفخر بها . . ومن أجلها واجهت الكراهية والعذاب . كيف استجبت لهم هكذا ببلاهة ؟ كيف ؟

وأزاحت المرأة البدينة فم رضيعها . . ما زالت النظرات تلاحقنى . . وددت لو كان بيدى سيخ ملتهب أفقأ به جميع تلك العيون المصوبة نحوى كأنها فوهات بنادق . .

لماذا لا ينتهون . . ؟ وما فائدة كل هذا . . قتلتها واعترفت . . فما جدوى أن يعرضونى هكذا لعيون الآخرين بنظراتهم المسعورة ؟

قتلتها . . سلوى . . أختى المبدعة الفاتنة . . القلب الذى كان يعطينى الحب . . والحنان والمشاركة . . قتلتها بوداعتها وصباها . . كيف بيدى انتزعت كل هذا منها ؟ هالنى الأمر فى البداية وهم يعرضونه على . . ترددت . . أنا تعرض على هذه المهمة ؟ غريبة . . من أين جاءتهم الثقة فى أننى سأوافق . . منذ متى كنت رجلاً فى نظرهم ؟ . . دائماً يعتبرونني « خرعاً » لا يصلح لمواقف رجولة . . دائماً كانوا يبعدوننى عن مشاكلهم ومعاركهم مع العائلات المنافسة لأننى فى نظرهم لا أصلح إلا لتمشيط شعرى . . وقراءة المجلات . . دائماً كانوا يسخرون من طراوتى التى تشبه سلوك بنات الذوات . ، عندما كنت صغيراً

أذهب إلى الحقول مع أطفال العائلة كان أبناء أعمامى يعايرونني كلما وجدونى قد استغرقت حالماً أصغى لخرير المياه فى الجداول . . أو أربت بيدى فوق رءوس الكلاب بينما يمارسون هم ألعابهم العنيفة ويتربصون ببنادقهم للذئاب فى حقول القصب . . أو يقومون بعمليات سطو على الحقول المجاورة ليسرقوا البطيخ . . أو يتلفون زراعة من يختلف الكبار معهم . .

حتى « جليلة » صغرى بنات عمى الأكبر كانت تمسك بخصلات شعرى « وتنكشها » فى سخرية لتؤكد بأننى تماماً أشبه أمى . . نعم لم يكن أحداً يناديني أبداً باسمى . . كانوا ينادوننى على الدوام بقولهم « ابن سميرة » ابن أمى . .

فمن أين أتتهم الثقة فى أننى يمكن أن أصبح بطلاً هكذا بلا مقدمات لأقتل وأختى بالذات . . وهم يعلمون فرط حبى لها وشغفى بها . . قلت لهم إننى لا أستطيع أن أكون قاتلاً مهما كانت الأسباب . . وقذف بها حسن ابن عمى متهكماً . . ألم أقل لكم . . كنت أتوقع ذلك . . « ذيل الكلب لا يمكن أن يعدل أبداً » . . حضرته لا يصلح إلا لكتابة المواويل . . ولكزه عمى فى جنبه معترضاً . . وانطلق يردد الأسطوانة . . العار . . كلام الناس . . شرف العائلة . . وواجبي . . فليس هناك من هو أحق منى بإزالة هذا العار . . وترددت . . أختى ولياليا . . والعشرة وقلبها الذى يحتوى أفراح انتصاراتى . . وأشجان هزائمى . . أى جنون سول لى الموافقة . .

كانت مستلقية فوق فراشها وتحت رأسها وسادة يتمرغ فوقها شعرها الفاحم المتموج وقد استغرقت فى قراءة قصة مترجمة من تلك القصص التى كانت مشغوفة بها . . ودخلت عليها بهدوء وأنا أغلق الباب خلفى وأحاول السيطرة على

أعصابى . . لأبدو طبيعيًا بينما سوس التردد ينخر فى مشاعرى . . نظرت إلى وحسبت الأمر مجرد هموم صغيرة كتلك التى تعودت أن أفضى إليها بها . .

– مالك يا وجدى . . تبدو مكتئباً ؟

– أبداً يا سلوى . . لا شىء . . مجرد صداع . . أقرأت الرواية . . « مدحت » عاوزها . . سألنى عنها . .

– أوشكت تقريباً . . على فكرة مدحت تصرفاته تبدو غير طبيعية هذه الأيام . . ما الذى يغضبه . . لم يعد يزورنا ؟

أكد لى تهافت نبراتها فى سؤالها عنه . . ووميض اللهفة الذى يشع من عينيها عندما سمعتنى أذكر اسمه صدق ما زعموه لى عن علاقتها به . . إن الخطابات التى وقعت فى أيديهم هذه الخطابات لا تؤكد وجود علاقة آثمة . . إنها تتحدث عن الحب والأشواق وأحلام الغد . . وعندما قلت لهم هذا ثاروا فى وجهى . . حب . . ومنذ متى كانت عندنا بنات تحب . . وأخذوا يؤكدون لى بأن قرار قتلها وافقت عليه العائلة بأجمعها . . وأن مهمة التنفيذ إذا كانت قد ألقيت على عاتقى فلأنى أجدر العائلة بذلك . . وأن عارها يلحق بى قبل أى واحد منهم . . فإذا امتنعت فليس معنى هذا أن يبطل القرار . . فالبلدة كلها تتهامس بالفضيحة . . وأين يمكن لرجال « عائلة الشرقاوى » أن يخفوا شواربهم سينفذ القرار قمت بالمهمة أم أبيت . . وفى هذه الحالة ستعلن العائلة أنها تبرأت منى . . لا ياحسن . . لن أدعك تقتلها يا حسن . . لن أدعك تشنى غليلك منها لأنها رفضت بشجاعة وكبرياء أن تتزوج من وحش مثلك . . لا يا حسن لن تكون نظرتك الشامتة المتوحشة آخر ما تراه سلوى فى هذا العالم . . ودنوت منها كأنى

أنظر إلى أية صفحة وصلت فى قراءتها وفجأة وفى جنون ولأحسم التردد الذى بدأ يخرب إرادتى أمسكت بخصلات شعرها وإلى الخلف لويت رقبتها . . وأغمدت السكين حتى النصل فى صدرها . . وتفجر الدم . . الدم . . الجنون . . الأشباح . عقلى . . قوة ما تنتزعه . . طبقات من الضباب تتراكم فوقه . . وسلوى تتدحرج من فوق سريرها . . تتلوى غارقة فى دمها . . وفى نظراتها الجاحظة المشدوهة تساؤل مدهوش . . كالعتاب . وبلا حقد . . وأمى تخبط الباب الذى أحكمت رتاجه حتى تكسره . .

– نحن فلاحون يا أمى . . وصعايدة . .

– عملوها معك يا ابنى . . يا خراب بيتك يا سميرة . . سلوى . . حبيبتى . . كبدى أنا أمك يا حلوة . . كلمينى يا سلوى . . ردى على ماما يا سوسو . .

واحتضنتها بالدم تبكى وتصرخ فى التياع وتمزق . . وتعفر رأسها فى بلاط الحجرة الذى اصطبغ بدمها . . وتطفر من أعماق أشباح . . فأجرى ملتاثاً . . مهبولاً . . ثم أعود لأتهالك على الجسد الراكد فى دمه وقد سكنت تماماً اختلاجاته . . أقبله . . الثغر ، الوجنات . . الشعر . . الصدر . . فى جنون . . ثم أنهض وأجرى من جديد وأعود لأخبط فى الجدار رأسى . . وتتزايد الضجة ولا أعود أشعر بشىء . . عربة البوليس تقلقنى والقيد فى رسغى . . وصرخات أمى تلاحقنى . . وعويل الجيران . . والأشباح . . وأختى غارقة فى دمها .

* * *

والذكريات . . موت أبى برصاصات معادية أطلقها عليه أحد خصوم

العائلة انتقاماً لثأر قديم . . والكراهية التى كانت تواجهنى من عائلة أبى الذى تزوج برغمهم من قاهرية غريبة أحبها وهو يطلب العلم فى الأزهر تاركاً ابنة عمه التى كانت مخطوبة له . . كانوا يكرهوننى لأننى ابن هذه الدخيلة . . وأمى التى تعذبت من أجل أن تصمد لمؤامراتهم . . وأحلامى . . وزملائى فى الجامعة الذين كانوا يسخرون منى . من « صعيديتى » وتحفظى وانطوائى . . والبنات اللواتى كنت أرتبك أمامهن وينز وجهى عرق الخجل لو سألتنى إحداهن عن موعد المحاضرة . . أو طلبت منى أن أعيرها كراستى ، والقصائد كنت أكتبها وأبثها ذوب روحى . . وغربتى . . وزميلتى المحررة بمجلة نسائية فى نفس الوقت والتى كانت حلم عمرى ولكنى أضعتها بخجلى وتحفظى وخوفى من جرأتها المتحدية . . والكتب التى كنت أعيش معها أكثر مما أعيش مع الحياة . كانت الكتب عالمى . . والأغنيات التى كنت أسمعها بكل ذرة فى كيانى والدموع فى قلبى . . وليلى مراد . . التى كنت أعشق صوتها وأتخيل أننى سألتقى بها ذات يوم وتحبنى . . . مع أغانيها كانت روحى تجد دنياها . .

ودلفت إلى « العنبر » كان مليئاً بالمساجين من أعمار متفاوتة . . وقبعت فى صمت تحت جدار بدون أن ألتفت إليهم . . وهرع الجميع يسألون ما خطبى . . كنت تائهاً . . سلوى بدمائها كانت أمامى . .

– يبدو . . أنه من أبناء الذوات . . قالها أحد وابتعدوا عنى . .

فى الليل انطلق المساجين يتغنون بمواويل عن أدهم الشرقاوى . وحسن ونعيمة . . ثم انزوت كل « شلة » فى ركن تثرثر حول « التعيين » والبق . . والشاويش عبد الباسط والبنت ذات العشرة أعوام التى أخذت ثأر أبيها . .

ويسألونني احك شيئاً . . قل حاجة . . وربك يفرجها . . ولا أجيب .

– افرد وجهك . . السجن للرجال يا روح أمك . .

ها . . ربما كان يظنه السينما . .

قالها سجين أعور . . ومن جديد ابتعدوا عني .

أعرف أيها الأعور . لكن اعفني من رؤية وجهك .

واندفع الحاجب يهدر . . « محكمة » في انتفاضة متشنجة . . لا مبرر لها إطلاقاً . . وتطلع الجميع إلى المنصة ما عداي . . كنت مشغولاً أحدق في وجه المرأة البدينة وهي تتجول بنظراتها القلقة ما بين هيئة المحكمة والقفص الذي يحتويني . . غريبة . . لم أهتز ، لم أنتفض لرؤية هيئة المحكمة . . ربما لأنني وطنت نفسي على كل الاحتمالات . نظرت إلى القاعة وقد وفد إليها آخرون . . بينهم أعمامي . . عمي الأكبر . . هذا العتل الأشيب بذقنه الكثة . . وسبحته . كم أبغضه . . حج بيت الله الحرام ثلاث مرات ويقتل القتيل ويسير في جنازته . لقد عذب أمي كثيراً بكبريائه وتعاليه . . لم يغفر لها أبداً أنها تزوجت أبي برغمه . . عمي . . أنا على استعداد لأن أخلد في الجحيم مقابل أن يدعوني الآن أنتف ذقنه هذه . . شعرة . . شعرة . . وأمي . . أمي لماذا لم تأت ؟ لماذا ؟ . . إني أحتفظ بدموع لا أريد أن أذرفها إلا عندما تأتي . .

وقام رجل غليظ الأنف . . صارم الوجه وظل يتكلم طويلاً عن الجريمة ونذالة دوافعي إليها . . والضحية البريئة . الزهرة المثقفة التي سحقتها بخسة قرباناً لمطامعي في التركة . . ثم انطلق يتلو تقرير الطبيب الشرعي مؤكداً بأن فعلتي لا يمكن أن يكون الانتقام للشرف هو سببها . . ولهذا فإنه يناشد المحكمة في

ألا تأخذها بى شفقة . . لم يحنقنى عليه كونه طالب بإعدامى . . إنها مهمته . . مورد رقاب للسيد عشماوى . . غاظتنى منه حذلقته . .وضغطه على كلمات ضليعة معينة . . وكونه دأب ينظر إلى طيلة مرافعته وكأننى فى نظره لا أكثر من حشرة . . .

وأمر الرئيس بإحضارى إلى المنصة وأخذ يستجوبنى وأنا صامت كأنما يوجه أسئلته إلى إنسان لا يعنينى . . . وغاظه برودى فأخذت لهجته تشتد وصوته يتوتر فى حنق . .

وأخيراً ولمجرد أن أتخلص من الموقف قررت أن أقول شيئاً . .

— «كل ما أعرفه أننى قتلتها . . قتلتها . . لأرث التركة وحدى . دبرت الأمر على أن تظل الجريمة مجهولة . . لم يكن فى خاطرى أن صرخات أمى ستأتى بالجيران » . . وسرت فى القاعة همهمات ناشزة . . ودنا منى المحامى يهمس فى أذنى بأن هذا التصرف من جانبى بمثابة الانتحار . . ليكن . .

وعدت من جديد إلى القفص . . المرأة البدينة تنظر إلى فى دهشة وإشفاق نظراتها الحائرة تقول لى . . أنت تكذب . فلماذا ؟ ما الذى يدعو هذه المرأة لأن تحملق فى هكذا ؟ . . ولست ابنها . . ولا حتى أعرفها ؟ لقد عشت لا أبغض شيئاً قدر أن يرثى لى أحد حتى أمى . كان يغيظنى إشفاقها المفرط . . ومعاملتها لى وكأننى شىء هش تكسره هفوة . . وعندما نهض المحامى الكهل الموكل للدفاع عنى تمنيت لو أن أطلق العنان لرغبتى فأنطلق مقهقهاً . . ثمة شىء يثير الضحك فى منظره وهو يقف بجسده النحيل . . وعنقه الذى نفرت عروقه وروبه المتهدل . . وقد أطلت من وجهه الشاحب كآبة تندد بالعالم كله . . وأخذ يترافع

مناشداً المحكمة بألا تلقى بالاً إلى اعتراف الأخرق . . حقًّا إننى قتلتها . . ولكن الأمر ليس كما أقول هو الطمع فى استحواذى على التركة . . لأن الطريقة التى ارتكبت بها الجريمة من السذاجة بحيث لا تتناسب أبداً مع تفكير مجرم طامع يرسم خططاً . . واستطرد يقول بأننى قتلتها وأنا مسلوب الوعى . . وكنت ضحية مؤامرة . . وانطلق يحمل على أعمامى مؤكداً بأن الإنصاف يقتضى بأن يكونوا هم الآن فى القفص وليس أنا . . فقد أقنعونى بعلاقتها التى لم تكن أكثر من حب عفيف بين شاب جامعى نبيل وفتاة مثقفة تواجهها تقاليد عفنة وتنمو حياتها خلف أسوار من قيم عطنة . . أقنعونى بهذا بدافع الحقد المتأصل الذى يكنونه لنا . . ليضربوا عصفورين بحجر واحد تموت هى ويكون السجن مصيرى أنا . . . وإنسان فى مثل شاعريتى وحساسيتى . . سيدفعه تكوينه لا محالة إلى الانتحار . . أما الأم فما أيسر الخلاص منها . . وبهذا تقع التركة الضخمة جاهزة فى أيديهم . .

« أهذا هو المقلب الذى كانت تتحدث عنه المرأة البدينة . . كيف غابت عنى هذه الحقيقة . . كيف لم تخطر على بالى . . لم يكن فى خاطرى أمام تصميمهم إلا أن مسألة التقاليد هى التى تدفعهم . كيف غابت عنى هذه الحقيقة . . كيف ؟ . . »

واستطرد المحامى يواصل دفاعه . . لقد استغلوا إحساسى بأنى كنت دائماً موضع سخريتهم لعاطفتى ورقتى . . فعرضوا على دور بطولة استجبت له بلا وعى ولا فهم . . حيث انطلقت كل الرواسب القديمة . . كل العقد . . تسوقنى من الداخل لأرد اعتبارى فى نظرهم ولو بالجريمة مبرراً فعلتى أمام نفسى

بأنها ستقتل حتماً فمن الأفضل أن تقتل بيدى . . ونهضت أطالبه بأن يغلق فمه . . لا يهمنى أن يظهرنى فى وضع الجبان الذى أراد أن يكون بطلاً فى نظر الذين كانوا يعايرونه برخاوته . لا يهمنى ذلك . . فهذا لم يخطر على بالى . . ثم إنها مسألة تخصنى ولكن كيف يؤكد للمحكمة فعلاً علاقة أختى بحبيبها . . مهما كانت هذه العلاقة بريئة ؟ . . هنا لا يعرفون علاقات بريئة . . لا أريدهم يعتقدون بأن هذا هو سبب مصرعها . . أهون عندى أن أموت من أن تلوك الألسنة شرف سلوى . . ولم يهتم المحامى بإهانتى وانطلق يضرب على نفس النغمة . . ومن جديد طلب منى الرئيس أن أتقدم . . وتكلمت . . كذبت كل ما قاله المحامى . . مصرًّا على أن الدافع فقط هو الطمع فى التركة . .

وعاد المحامى يوضح سبب إصرارى هذا . . ثم قدم للمحكمة دفتر مذكراتى الذى كنت أرصد فيه انطباعاتى ومشاعرى عن الإذلال الذى كنت أعانيه من أبناء أعمامى منذ كنت صغيراً . . وفى المدرسة . . وفى المجتمعات لإحساسى بأن ثمة شيئاً فى سلوكى يثير دهشة الآخرين . . وقد وضع خطوطاً حمراء تحت العبارات التى كتبتها فى فترة الصراع النفسى التى سبقت الجريمة وهى تؤكد فى نظره دور أعمامى فيها . . والدوافع المتشابكة التى ساقتنى لقتل الإنسانة التى أعبدها . . وختم مرافعته مناشداً المحكمة بأن تضع كل تلك الملابسات فى اعتبارها . . ورفعت الجلسة للمداولة . .

عزم على الشرطى الأسود الذى يقف ببندقيته أمام قفصى بسيجارة فاعتذرت شاكراً . . ما زالت المرأة البدينة تنظر نحوى وتوشك الدموع أن تطفر من عينيها . .

أمى . . لماذا لم تأتى أمى . . لماذا ؟

وعادت هيئة المحكمة . . ونطق الرئيس بالحكم الذى يقضى بإدانتى عشر سنوات مع الأشغال لأن المحكمة وضعت فى اعتبارها الظروف المحيطة بالجريمة . .

عشر سنوات . . فى السجن . . زايلتنى رباطة جأشى . . شعرت بالانهيار والضياع . . عشر سنوات يطاردنى دم سلوى . . وتهمس فى أذنى . . « ما لك يا وجدى » عشر سنوات . . أمى . . لماذا لم تأتى ؟ غفرانك يا أمى قتلتها لك ولست مجرماً . . صدقينى يا ماما . . لست مجرماً . . وانطلقت دموعى . . والمرأة البدينة . . منذ لحظات كانت نظراتها تلدغنى . . الآن أريدها . . تقول لى نظراتها بأن هناك من يشفق على ويتألم لمصيرى . . والتقت عيناى بعينيها ، كانت الدموع تنهمر على خدها . . والرضيع يمتص ثديها . . لكم أود أن أعانقها . . أن أغفو عن ضياعى لحظة واحدة بين أحضانها . . ودنت تهمس فى أذنى :

– ولدى . . الله معك . .

– سيدتى . . لست مجرماً . .

– أنا لا أفهم شيئاً . . ولكن . . قلبى يقول لى هذا .

جاء عمى فى هذه اللحظة . . وعندما اقترب من القفص كانت بصقتى قد تناثر رذاذها فوق ذقنه كرغوات صابون صغيرة . .

– سيدتى . . هل تعرفين أمى . . قولى لها أن تغفر لى . . نظرت إلى طويلاً وانخرطت تبكى . .

– يمكنك يا ولدى أن تعتبرنى أمك . .

نظرت إليها وفهمت . . لم أجد دمعة واحدة . . وامتدت يد المرأة تلامس جبهتى . . وفتح الحارس القفص وأخرجنى ودفعونى إلى عربة كانت فى الانتظار .

كتبت فى يونية سنة ١٩٥٦ ونشرت بمجلة «القصة» فى نوفمبر سنة ١٩٦٤ .

التذكرة

يدى تقرع الباب ومفاصلى سائبة . لا أحد يرد . لا يجيبنى من الداخل غير الصمت ! القلق يسوط أعصابى . ودقات يدى تتوالى ملتاثة . ولا شىء غير الصمت ! هواجس مكروبة تراودنى وإن كنت لم أفقد الأمل تماماً فى وجوده . . اليوم الجمعة . إجازة . ربما يكون ثقيل النوم . ! وتزايدت دقات يدى عنفاً . . لم أكف إلا عندما خرجت المرأة البدينة من الغرفة المجاورة تحمل فوق صدرها رضيعاً. ونظراتها تقذف شواظ الغضب وهى تخاطبنى بلهجة حانقة .

« لك ساعة تقرع الباب يا أستاذ . . لو كان بالداخل أموات لقاموا . . محمود جاءته برقية من الصعيد . وخرج مبكراً . مات عمه ! . . »

غامت الدنيا أمامى . . مات عمه ! رددتها مذهولاً . . كيف أيتها

البومة . . ابعدى نظراتك عنى . . ابعديها . سأخرج . واتجهت نحو الباب وأنا أشعر بنظراتها تخرق ظهرى . . دوامة من المشاعر اللاهثة تثور فى داخلى . تفكيرى عاجز عن الإمساك بأى خيط يوصلنى لمعالجة المشكلة . . البلادة ترين فوق ذهنى . لاشىء غير الإحساس بالضياع . . منك لله يا أبى . منك لله ! كيف طاوعك ضميرك على أن تتزوج فى شيخوختك لتنجب للعالم كتاكيت . . يعقدك عجز الشيخوخة قبل أن تصنع لها أجنحة !

ماذا أفعل الآن : ؟ الإعياء يسرى فى كيانى . لا أستطيع المسير . لا أستطيع . نضبت كل حيوية فى جسدى . . خطواتى المجهدة أدفعها بعذاب . وبين كل خطوة والأخرى يوشك قلبى أن يصمت نبضه . عندما وصلت « ميدان الجيزة » كنت قد استهلكت كل قواى . . لا قدرة لى على دفع خطواتى . . لا بد أن أركب عربة . . لا بد . ولكن من أين لى ثمن التذكرة ؟ ! لماذا اليوم بالذات يموت عمك يا محمود ؟ !

وصاحب اللوكاندة . . كيف سأواجه صفاقة تهديده . . الحمد لله وجدت فكرة . تذكرت اليوم الجمعة « الصعايدة » يصلونها غالباً فى مسجد الحسين . . لن أعدم هناك بعض أبناء بلدتى . قطعاً ستدفعهم نخوتهم لإقراضى نقوداً أسدد بها حساب اللوكاندة . وأبتاع تذكرة أعود بها إلى مدينتى . . لن أمكث هنا أبداً . . خدعت فى القاهرة . . خاب أملى . . إنها مدينة مات قلبها . . قد تكون بلدتى الصغيرة كئيبة بأحزانها وتعاستها . ولكن قلوب الناس فيها تنبض بعواطف المحبة تملك أن تعطى حرارة المشاركة . لا يشعر الإنسان فيها بصقيع الوحدة . هنا أشعر بأنى مجرد حشرة . . سأعود إلى مدينتى . . المهم أن أركب

الآن . . وخطرت لى من خلال الإعياء فكرة . . سأنتق عربة مزدحمة بالركاب حتى أتمكن من « الزوغان » بينهم . . لا بد أن أصل قبل خروج الصلاة !

عديد العربات العامة مرت أمامى . وأنا أقاوم ترددى . وأحاول إسكات عواء ضميرى . . ستكون فضيحة . لو اكتشف الكمسارى فعلتى . . وتحاملت على نفسى أحاول المسير ولكنى توقفت من جديد أسند قلبى . . لا جدوى ! دست على كل الاعتبارات ثم دلفت داخل إحدى العربات من باب الدرجة الأولى . . لم أكن « فقريًا وابن حظ » ! الكمسارى يقف بقرب باب الدرجة الثانية . . يقطع تذاكر ركاب المؤخرة . . وتواريت خلف أكتاف الركاب وأنا أنقل خطواتى إلى الدرجة الثانية . . ليس فى هيئتى ما يجعلنى أجسر على الوقوف بالدرجة الأولى . . ربما يرتاب الكمسارى فى أمرى . . انحشرت بين الواقفين الذين يكتظ بهم ممر الدرجة الثانية . بعد أن تأكدت من وجود التذاكر بين أصابع الذين وقفت بجوارهم !

وأخذ الكمسارى ينقل خطواته بين الأجساد المتلاصقة إلى أن وصل عندى وهو « ينقر » بقلمه فوق خشبة التذاكر ويردد كلماته الروتينية « تذاكر » يا « حضرات » « تذاكر » واتخذت وضع من لا تعنيه الكلمات . ودقات قلبى تتعالى مهبولة بالخوف . ومن خلف ظهرى جاءتنى كلماته بعد أن نقر بالقلم فوق الخشبة « السيد . . خلاص . . هنا ؟ » أحسست بنقرته فوق قلبى . . ! لا أدرى كيف سيطرت على أعصابى . وإن كنت لم أستطع التفوه بالإجابة مباشرة . . مكتفيًا بإيماءة من رأسى تعنى الموافقة !. ثم استدرت عنه سريعاً حتى لا يقرأ الكذب فى نظراتى !

وزحف إلى الدرجة الأولى . . الحمد لله . ها قد انتهيت من الكمسارى وقرأت الفاتحة للحسين . . والسيدة زينب . وكذلك الشيخ القرنى ولى الله فى بلدتنا ! بقيت مسألة المفتش . . بسيطة يمكن التغلب عليها . . المفتش يدخل غالباً من باب الدرجة الأولى . عندما أراه سأبادر بالهبوط . . وظلت نظراتى من بين أكتاف الركاب عالقة بمدخل الدرجة الأولى أترصد دخول سيادته عند كل محطة تقف العربة بها ! !

وما زال ضميرى يعوى . لا يريد أن يخرس . لمجرد خطيئة صغيرة . . للضرورة أحكامها !

ولبثت أحاول أن أتخلص من عوائه . ومن كل المشاعر المتشابكة التى تجرفنى بشأن أزمتى حتى أركز كل حواسى فى الانتباه لحركة الدخول فى الدرجة الأولى . .

بالأمس كانت نقودى قد نفدت تماماً وخرجت إلى الشارع بدون كوب الشاى بالحليب الذى تعودت أن أغير به ريقى كل صباح . . بعد أن هددنى صاحب « لوكاندة المنتزه الحسينى » بأن يقذف بى إلى الشارع إذا لم أبادر بدفع حسابه طرفى . . . أقسم بمقام الحسين أن يسلمنى للبوليس إذا لم تنى ملابسى بحسابه . . فليست لوكاندته مأوى لكل صعلوك متشرد يقذف به إلى المدينة قرف الصعيد . خرجت والدنيا أمامى يكتنفها الضباب . . أعرف أن الرجل لن يتردد فى تنفيذ وعيده . . ليس هناك ما يمنعه من أن يفعل . . . بعد الأسابيع التى قضيتها فى هذه المدينة لن أستغرب أى تصرف يحدث فيها . . رأيت بعينى رجلاً رفض أن يتخلى عن صحيفته لتغطى بها عورة جثة ! ! . .

وفى ميدان الأزهر قابلت محمود عبد الحق . الطالب بكلية الحقوق جارنا وزميلى فى مدرسة أخميم الابتدائية . . كنت وقتها الغريق . وكان هو القشة ! . .

وما أن تصافحنا وتعانقنا . وسألنى عن سبب مجيئى من الصعيد حتى انطلقت أحكى له القصة بحذافيرها . جئت لأبحث عن عمل هنا . استغنت « دائرة شيرين » عن خدمات أبى بعد ما تدهورت صحته نهائياً . وهذا ما جعلنى أنقطع عن مواصلة تعليمى لأعطى الفرصة لبقية إخوانى . . لم أجد فى الصعيد عملاً . فأعطانى عضو مجلس الشيوخ عن مدينتنا خطاب توصية لقريب له صاحب نفوذ هنا ليجد لى عملاً فى واحدة من الشركات التى يهيمن عليها . . ومضت ستة أسابيع وأنا أتردد على مكتب صاحب النفوذ . . فى كل مرة أقف أمامه متخاذلاً مستكيناً إلى أن ينتهى من مكالماته « التليفونية » المتواصلة . . وعندما ينتبه إلى وجودى أمامه يبتدرنى بالعبارات التى تعودت سماعها فى كل مرة . . هـأنت ذا ترى فرط انشغالى . . لكنى ما زلت مهتمًّا بموضوعك . . حاول أن تمر على بعد أسبوع ! « حتى تبخر تماماً كل ما استدانته لى أمى من أبناء وبنات الحلال ! ! وليس لى أقرباء هنا ! وأبدى محمود تأثره لكل هذا . . ثم أعرب عن أسفه لكونه لا يستطيع الآن معاونتى . . لأنه لا يحمل نقوداً تزيد كثيراً عن نفقات المواصلات . . وأدخل يده فى جيبه وأخرجها ببضعة قروش احتجز منها أجرة العودة وأعطانى أربعة القروش المتبقية . وعنوانه فى الجيزة لأذهب إليه صباحاً عساه يستطيع أن يدبر لى نقوداً إلى أن تصلنى المعونة التى طلبتها بخطاب من أمى . . ثم صافحنى بحرارة وركب الترام . !

وتعشيت بقرشين . وشربت كوباً من الشاى بقرش . واستبقيت قرشاً لأركب به الترام صباحاً من العتبة « إلى الجيزة » . وها قد مات عمه . . ! أبى . . لماذا أنجبتنى للعالم . . أية ضرورة دعتك لأن تفعل ! والرجل صاحب النفوذ . . آخر مرة . تمنيت بعذاب غيظى أن أفقأ «كرشه» الممتد لعدة أشبار أمامه ! امشغول . . وأنا . . هل قيل له إننى حجزت جناحاً لسيادتى فى « شبرد » ؟ وما شأن صاحب لوكاندة المنتزه الحسينى بانشغاله ! ! ومحمود عبد الحق . . أكان من الحتم أن يموت عمه . اليوم بالذات . ! ماذا أفعل لو فشلت فى العثور على ناس من بلدى بعد صلاة الجمعة ؟ !

كان هذا السؤال – مختلطاً بدوامة الأزمة – قد سيطر على كل وجودى . حتى إننى نسيت مدخل الدرجة الأولى . بل نسيت أننى فى عربة تماماً ! إلى أن فوجئت بالمفتش أمامى وجهاً لوجه !

عندما مد لى يده ليفحص التذكرة تمنيت لو أن تنشق الأرض وتبتلعنى . ولم تنشق الأرض . بينما يد المفتش ما زالت ممتدة نحوى !

كنت رئيساً لفريق التمثيل فى المدرسة الثانوية . فاستنجدت بخبرتى . . بسرعة اندفعت يدى تقلب جيوبى بحثاً عن التذكرة الوهمية . وأنا أتصنع الدهشة . ونظراتى تخترق الأرض بحثاً عنها . ونظرات المفتش التى نفد صبرها مسلطة على . ناطقة بالريبة . وتوشك أن تلفظ الاتهام !

قلت ويدى تعبث بكل جيوبى وأنا أتحاشى نظراته .

– « يبدو أن التذكرة . . ضاعت ! ومن جديد اندفعت نظراتى تتجول بين أقدام الركاب . . ها قد وقع المحظور . . انطلق ضميرى يعوى . . وقع

المحظور . . حاولت أن أعود ماشياً . . لم أستطع . كنت سألفظ روحى قبل أن أصل . وربما تدهمنى عربة . وتتركنى أتخبط فى دمائى على قارعة الطريق . أموت قتيلاً فى مدينة لن يهتم ناسها حتى بأن يضعوا جثتى تحت جدار . . سيلقى كل عابر نظرة . ثم يواصل مسيره . . منذ أيام رفض أحد المارة أن يعطى الصحيفة التى بيده لامرأة طلبتها منه لتغطى بها جثة بائع الحلوى العجوز الذى صرعته عربة الترام فى ميدان الأزهر . . لو عدت ماشياً ماكنت سألحق خروج صلاة الجمعة . . !

ابعد نظراتك عنى ياسيدى المفتش . . إنها تعرينى من ثيابى . . تعذب آدميتى ابعدها !

– « أهى » إبرة « يا أستاذ : كفى تمثيلاً ! » ثم أردف يخاطب الكمسارى .

– « شوف المحترم يا على . . اعط له تذكرة ! » قالها مفعمة بالاحتقار ومتضمنة تأنيباً للكمسارى فى نفس الوقت . ثم انتقل إلى غيرى وهو يغمغم بكلمات عاقتنى الدوامة عن سماعها . .

وتفصد العرق من جبينى والخجل يسحقنى وكل النظرات كأنها فوهات بنادق مصوبة نحوى . . لم أرتكب جريمة أيها الناس . « دائرة شيرين » فصلت أبى . . مريض أنا ولا نقود معى . . لا بد أن أصل الحسين قبل خروج الصلاة لماذا كل هذا الاحتقار فى عيونكم لى ؟ !

وجاء الكمسارى يقيسنى طولاً وعرضاً بنظراته الشامتة وهو يثقب بكلماته مشاعرى :

– « يا ناس . . حرام عليكم . نحن وراءنا عيالنا . . ألا يكفينا غلبنا طول

اليوم . . هات . يا أستاذ . هات ! »

وراءك عيال أعرف . ولكن لماذا كل هذه الضغينة فى نظراتك . كأنما أمسكت بقاتل أبيك ! أخرس الارتباك لسانى . ورأسى منكسة إلى الأرض حتى لا أواجه نظراته وعيون الركاب التى تنتظر النتيجة فى شراهة الفضول . . ! من جديد امتدت يدى تفتش كل جيوبى ثم أخرجتها خاوية . . ترتعش . . الكلمات تبكى فى حلقى . .

– « قطعت تذكرة . . لكن أين راحت . . لا أدرى . سقطت منى . ربما بين الزحام » .

وعادت نظراتى تتلفت تحت المقاعد وبين أقدام الركاب . بدون أن أجد حتى تذكرة قديمة . !

الرجل ما زال واقفاً أمامى يحدق فى بنظرات متحدية . . أخيراً نفذ صبره . . « خلصنا يا حضرة ! » وعيون الناس كلها متجهة نحوى . . وفتاة صغيرة تهمس فى أذن السيدة الجالسة بجوارها نظرات الرثاء فى عينيها تمزق كبدى . . وجدت الكلمات بصعوبة .

– « يبدو أننى نسيت حافظتى فى البيت . . أنزلنى لو سمحت » وما أن قلتها حتى تلقفتها قهقهة الكمسارى صاخبة عربيدة ترج قلبى .

– « أهلاً . . وسهلاً . نسيت الحافظة فى البيت ! وبها « دفتر الشيكات » طبعاً هدئ يا أسطى إبراهيم لينزل الأستاذ بسلامته . . عربته الخاصة وصلت ! « أفندية » آخر زمن . جاءكم القرف . . إلى الباب يا أستاذ قدامى ! ! . .

وجذبنى من ياقة القميص يسوقنى تجاه الباب . . وتناهى إلى صوت أحد

ركاب الدرجة الأولى ورائى . . « نشال . . ركب يخرب بيوت الناس ! . لم أسمع بقية التعليقات . فقد دفعنى الكمسارى إلى الخارج منكفئاً على وجهى قبل أن تتوقف العربة تماماً ونهضت أنفض التراب عن ثيابى والإعياء يشدنى نحو الأرض من جديد . . الدنيا تسود أمامى . . قلبى . قوة ما تستله . نهرسه . . الدنيا تدور . . دماغى تدور . أمى . . أبى . . الصعيد . صاحب اللوكاندة . . محمود عبد الحق . . التذكرة . . دائرة شيرين باشا . . المرئيات تختلط أمامى . . تتداخل فى بعضها . . وأنا أزحف بخور وإعيـاء نحو الجدار القريب لأستند عليه . . ريثما أسترد أنفاسى ! ! » .

كتبت فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ ونشرت بمجلة «القصة» فى العدد الخاص بطلائع القصة القصيرة فى يونية سنة ١٩٦٥ .

الصعايدة

جلس عمار أفندى أمين شونة بنك التسليف على أحد مقاعد مقهى (الكمال) وأسند مرفقه فوق حافة المنضدة الرخامية ثم صفق للجرسون وطلب « فنجان بن على الريحة » وبسط الصحيفة التى كانت بيده ولكنه سريعاً ما طواها فى سأم بعد أن ألقى على عناوينها نظرات خاطفة . . وأمال رأسه على ساعده وبدا ساهماً . . حزيناً تنم تجاعيد جبهته المتقلصة عن قلق عميق يمور أعماقه . . وليتهرب من مشاعره . . أجال بصره داخل المقهى ولكنه لم يجد أحداً من الأصدقاء الذين تعود أن يقضى بينهم فراغه فى الحديث ولعب « الطاولة » . . وليست هناك هواية استأثرت باهتمام عمار أفندى غير شغفه بهذه اللعبة . . فكلما نهض من نومة الظهيرة بعد انتهاء عمله . . غادر البيت وانطلق إلى المقهى . . وظل يلعب الساعات الطويلة بغير فتور ولا ملل . .

ولم تكن أعصابه تهتز أبداً لمعاكسة «الزهر» بل يتحداه فى ثقة مواصلاً اللعب فى إصرار على أن ينال الغلبة فى النهاية .

وقد تعود أن يلاعب أكبر عدد من زبائن المقهى . . حتى المرات التى كان يمتنع فيها عن اللعب بدافع الإجهاد أو التوعك لم يكن يستطيع قمع رغبته فى المشاهدة متحيزاً لأحد الطرفين بدون أن يغضب الخصم المنافس . . فهو صديق الجميع على حد سواء . . والكل يعرف أن تدخله لصالح أحد الأطراف لا ينطوى أبداً على مفاضلة . . فهو غالباً يتدخل لصالح الأضعف فى اللعبة إثباتاً لأستاذيته هو فيها . .

وهذا ما يشعره بمسرة متناهية لمكانته الملحوظة بين رواد المقهى وعشاق اللعبة . . ولا شىء ينغص عليه اعتزازه بهذه المكانة سوى الحاج عباس الأشرم . . متعهد التموين والأزهرى الذى يفاخر دائماً بآثار كرابيج الإنجليز على ظهره فى ثورة سنة ١٩١٩ . . فهو الوحيد الذى يكابر فى الاعتراف له بتفوقه فى اللعب . . برغم أن عماراً لاعبه مراراً . . وهزمه فى أغلب المرات . . مع هذا ظل متشبثاً بعناده يلوم الحظ الذى يعاكسه غالباً فيخسر . . ويمالئ عمارا دائماً فيغلب . . نفس الحظ الذى جعل منه مجرد متعهد توزيع زيت ودقيق . . بينما رفاقه فى الثورة أصبحوا وزراء وزعماء أحزاب . .

وجاء الجرسون بفنجان البن . . فتناوله عمار يحتسيه فى رشفات عصبية متعجلة . . وعندما أقبل « عكاشة » ماسح الأحذية ، لم يكن عمار راغباً فى تلميع حذائه . . إلا إنه فى لحظات أزماته النفسية يجد نفسه مدفوعاً لأن يتبادل الحديث مع الآخرين هرباً من مواجهة نفسه . . ومد عمار قدمه . . فكانت

إشارة انتهزها عكاشة بسرعة . . فاقتعد الرصيف . . و « نكش » جوف صندوقه وانهمك يدهن الحذاء ويثرثر . . وثرثرة عكاشة غالباً ما تكون لذيذة . . إذ لا تحدث فى بلدتنا كبيرة ولا صغيرة بدون أن يعرفها عكاشة بقدرة قادر . . فهو وحده الذى يعرف كم قبض العمدة لتقيد جريمة مصرع الشيخ طنطاوى ضد مجهول . . وهو الذى يعرف بالضبط عدد « الديوك الرومى » التى تقتنيها زوجة « البيه المأمور » وهو وحده كذلك الذى يعرف مصدر « الخروف » الذى شوهد « مخلوف شيخ البلد » يدلف به ليلاً داخل بيت معاون البوليس . .

وعكاشة لا يمارس مهنة التلميع وحدها . . فهو الذى يجلب الخادمات القرويات لزوجات الموظفين الغرباء . . وهو الذى « يوضب » قعدة المزاج للأعيان . . وهو على صلة وطيدة بالعزاب منهم على وجه خاص . .

ورغم الحزن الذى يمور بالقلق داخل عمار أفندى للخطورة التى وصل إليها مرض ابنه الطالب بكلية الزراعة جامعة القاهرة ، أخذ يصغى لثرثرة عكاشة فى تلذذ واستلطاف . . ثم قهقه فى شماتة عندما أفضى إليه بهزيمة « عباس الأشرم » بالأمس فى الطاولة أمام « جوزيف أفندى سكرتير المجلس البلدى » حيث كانت المباراة ساخنة على عشر زجاجات بيرة . . وتمنى عمار لو أنه شاهد المعركة . . حيث أنفق ليلته ساهراً بجوار فراش ابنه المهموم . . وشعر بالحزن يعتصر قلبه . . عندما تذكر الآلام التى عاناها ابنه مختلطة بالهذيان والأنين . . ونحيب زوجته الملتاعة وقد اصفر وجهها وهزل جسدها . . « وسلوى » ابنته الصغيرة وهى قابعة بجوار سرير شقيقها المعبود تمسح دموعها التى لا تتوقف بكم جلبابها . . وتأبى أن تذهب إلى فراشها لتنام بينما يتعذب معبودها . .

وعكاشة ما زال مستغرقاً فى تلميع الحذاء وتمزيق سيرة خلق الله . . وبين الفينة والأخرى يخالس عمار نظرات جانبية متعجلاً فى قراراته انتهاء السيجارة . . وما إن قذف بها عمار حتى التقطها عكاشة يجذب أنفاسها بشراهة نافثاً الدخان من طاقتى أنفه بدلاً من فمه . . ومن بعيد شاهد عمار (الأستاذ كمال عاشور المحامى) . . قادماً يرافقه عباس الأشرم . . فشعر بالانقباض لمجىء عباس . . فهو الآن ليس فى حال يمكنه معها احتمال « مناكفات » عباس . . واستعراضه لخفة دمه . .

وعدم الاستلطاف والعداء الذى يصل بين عمار وعباس إلى حد المشاجرات وتبادل الشتائم الحادة أمام زبائن المقهى مسألة يعرفها أغلب الناس فى مدينة (أخميم) الصغيرة المحدودة . . فعمار تغيظه من عباس نعرته الصعيدية المتفاخرة بعراقة أسرته وأطيانها العديدة التى باعتها فى الكرم والشهامة والوطنية . . وتفاخره كذلك فى كل مناسبة . . بل وبدون مناسبة . . بدوره الكبير فى ثورة سنة ١٩١٩ عندما كان يتلقى العلم فى الأزهر ويخطب فى المساجد . . ويطوف مع (القساوسة) فى الكنائس . . ويوزع المنشورات ويقود المظاهرات . . وينام على أسفلت السجون . . وتطارده عيون المخبرين . . ثم انسحب بعدها من الميدان السياسى فى صمت . .عندما وجد ثوار الأمس يتقاتلون على مقاعد الحكم . . وعاد إلى بلده بدون أن يقبض الثمن . . كما قبضه الذين لم يقدموا شيئاً فى مقابله . . بل رفض منذ سنوات أن يزوج ابنته (أنيسة) من أحد وجهاء الإقليم لأن والده كان أحد أعضاء (حزب الشعب) حزب صدقى باشا . . والإنجليز . .

وأكثر ما يغيظ عمار منه هو ادعاؤه معرفة بواطن الأمور السياسية وقدرته على اكتشاف ما بين السطور فى مقالات وأخبار الصحف . . بجانب أن الشك يراوده فى أن « العرائض » التى قدمت ضده « للجان التطهير » فى بداية « ثورة يوليو » وأثبت التحقيق بطلانها كان وراءها عباس الأشرم . . فأسلوبها (المنفلوطى) لا يجيده فى أخميم سواه . .

وعباس الأشرم من جانبه يبرر كراهيته لعمار بأنه دأب يتهمه بالتغفيل فى اللعب . . وادعاء بطولة وهمية فى الثورة . . كما يحرص دائماً على أن يسفه كل وجهة نظر يبديها فى السياسة أو الأدب . . إلى حد أنه يجعل منه أحياناً – بقدرته البارعة على تصيد النكتة – أضحوكة المقهى كله . . كما أن عباسا يعتقد بأن عماراً . . – هذا الدمنهورى الخبيث – . . كان وراء فشل زواج أنيسة – الله يرحمها – من أحد المحامين الجدد والذى يتوقعون له مستقبلاً مرموقاً فى الإقليم . .

ألقى الأستاذ كمال بالسلام على عمار مستفسراً منه عن صحة ابنه . . وجلس يطلب (شيشة) وطاولة . . وأومأ لعمار فعرف أنها دعوة للنزال استجاب لها رغم ضيقه بوجود عباس كمحاولة ربما تفلح فى انتزاعه من القلق الذى يثقب أعصابه . .

بالأمس لاحظ اليأس الذى راود « الدكتور حمدى » من شفاء ابنه رغم التفاؤل الذى اصطنعه لطمأنة القلوب الواجفة التى تحيط بفراشه . .

وأحس بانقباض على صدره عندما تخيل مدى ما يمكن أن يصل إليه فى حياته من خواء وتعاسة لو اختطف الموت ولده . . إن أعصابه التالفة لم تعد

تحتمل البقاء فى البيت متناهية إليه توجعات ابنه وعذابه . . كما أن الكآبة المبكرة التى تطل من نظرات سلوى الصغيرة أصبحت تقطع نياط قلبه . . وانتقل من مكانه وجلس فى مواجهة الأستاذ كمال عندما جاء الجرسون بالطاولة . . وما إن قذف (الزهر) حتى انطلق عباس يثرثر فى السياسة كعادته . . وكانت القنبلة الذرية هى مادة حديثه . . معرباً عن اعتقاده بأن هذا السلاح جاء نتيجة إحساس الإنسان بمركب النقص تجاه الطبيعة بما تحدثه من أعاصير وبراكين وزلازل . . فأراد أن يثبت بهذا الاختراع أنه فى مثل جبروتها . .

ولم يكن هناك من يصغى لحديثه . . كان عمار شارد الذهن ينقل (الأقشطة) بفتور وبغير البراعة المعهودة فيه . . لم يستطع أن يتخلص من همومه ، وصورة ابنه المسجى فوق فراشه لم تبرح خياله أبداً . . وخطر له أن يغادر المقهى ويذهب إلى البيت ولكنه أحجم عن ذلك . . فأعصابه لا يمكن أن تتحمل من جديد عذاب ابنه وتوجعاته . .

ولاحظ الأستاذ كمال الانفعالات التى يعانيها صديقه . . فأغلق الطاولة وأعفاه من مواصلة اللعب . . وانطلق يواسيه مناشداً إياه أن يترك الأمر لرحمة الله وأن لا يعذب نفسه هكذا . . بلا جدوى .

وتنهد عمار فى كآبة . . وبدا وكأنما عشرات الأعوام قد أضيفت إلى عمره . . وأخذ عباس الأشرم يقدم بدوره نصائحه . . وساد الصمت مشوباً بالقلق والأسى . . إذ فطن الأستاذ كمال وعباس للدموع التى يحاول عمار مداراتها عنهما بإطراقة رأسه فوق المنضدة . . ورفع عمار رأسه فى فزع يلتفت إلى الخارج عندما تناهى إليه صراخ طفلة . . يعرف صوتها جيداً . . وكانت هى سلوى

الصغيرة . . تجرى مرتاعة وهى تنتحب ويدوى فى الشارع صراخها المجنون الملتاث . . وما إن رأت والدها حتى ارتمت فوق صدره كأنما تحتمى من أشباح غير منظورة تطاردها . . وهى تردد بنبرات متقطعة ملتاعة :

– « با . . با . . با . . بابا . . م . . د . . مدحت . . ما . مات . . »

واختنق صوتها بالدموع وهى تردف كأنما توجه بكلماتها عتاباً للدنيا بأسرها :

– « تو . . حه . . توحه . . ما . . ت . . مات . . يا . . بابا توحه » . .

وماد الكون بأسره فوق رأس عمار . . مدحت . . مات . . وقذف بالصغيرة بعيداً عن صدره . . ونهض يركض فى خبل والدنيا ضباب فى وجهه . . وفى أثره الصغيرة تنتحب وهى تحاول أن تلحق بخطواته . . وبعض الذين جروا خلفه من الأصدقاء . . وعباس الأشرم الذى رفع أطراف عباءته وأخذ يهرول خلفه وهو يلهث ويتوقف بين اللحظة والأخرى ليلتقط نظارته ويثبتها فوق أذنيه كلما سقطت إلى الأرض . .

اندفع عمار بجنون داخل غرفة ابنه وارتمى على جثمانه وهو يصرخ صرخات مفجعة . . ويتفوه بكلمات تفتت أكباد الجيران الذين يلتفون حول الميت . . بينما أفكاره تنطلق من خلال المأساة وتدور حول تكاليف تجهيز الجثة ومصاريف نقلها لتدفن بمقابر الأسرة هناك فى دمنهور . . فهو لم يدخر شيئاً يواجه به احتمالات المجهول . . وقد التهمت نفقات العلاج (مصاغ) زوجه . . الحيرة تنهش مشاعره بجانب المأساة . . فيرتمى على جثمان ولده ينتحب . . فى تمزق وجنون . . ويوجه إلى الله كلمات معاتبة . . ويقاوم الجيران وهم يحاولون إخراجه قسراً . .

– « عمار . . أفق لنفسك يا أخى . . العقل والدين . . أمر الله يا عمار . . لا شريك له . . إنا لله وإنا إليه راجعون » . .

قالها عباس الأشرم مختلطة بدموعه . . وذاكرته تنطلق بعيداً إلى قبر هناك يضم جثمان (أنيسة) ابنته الوحيدة التى اختطفها الموت وتركه وحيداً لشيخوخة كئيبة تفتقد متعة الإحساس بأنها تعيش من أجل شىء يعطى الحياة طعمها . . ثم انسل من بين الزحام ليشترى (الكفن) ويستدعى مفتش الصحة . . كان فى خاطره أن إكرام الميت – كما يقول الحديث الشريف – دفنه . .

وعاد فطلب منه عمار أن يتوجه إلى « السنترال » ليرسل تلغرافاً لأسرته فى دمنهور لتنتظره والجثمان . . وإن كان لا يدرى من أين سيحصل على النفقات . .

وعلت الدهشة وجه عمار وهو يرد معترضاً :

– « تلغراف . . كيف تقول هذا يا عمار . . عشر سنوات وأنت معنا . . أصبحت واحداً منا . . مدحت ابن الجميع يا عمار . . وانهمرت دموعه فأشاح بوجهه بعيداً وهو يعاود حديثه . .

– « كل واحد هنا كان يعتبره ابنه . . وكل واحدة كانت أمه . . »

وعادت دموعه تتدفق بغزارة مختلطة بنهنهات متقطعة . . وجاوبتها دموع الجميع . . الذين انبرى كل واحد منهم يؤكد كلمات عباس . . وتعطيها الصدق دموعه . . ولم يقل عمار شيئاً . . نظر إليهم وتزايد نحيبه . .

وتم كل شىء وفق ترتيب عباس والجيران . . وعمار قد استغرق تماماً فى حزنه

الصامت المذهول . . لقد مات مدحت . . وماتت معه كل الأشياء الجميلة فى حياته . .

وعندما قبض راتبه والسلفة التى اقترضها من عمته الموسرة بدمنهور توجه إلى « مندرة » الحاج عباس ليرد له التكاليف التى أنفقها . . وانقبض وجه عباس فى دهشة واستغراب عندما سمع كلمات عمار عن التكاليف . . أشعل له سيجارة وأشعل لنفسه أخرى نفث دخانها وهو يغمس نظراته الحزينة داخل عين صديقه . . يطلب منه فى عتاب أن يكف عن هذا الحديث البغيض . . فليس ما فعله إلا مجرد واجب بسيط نحو صديق وجار عزيز . . واجب تحتمه الجيرة . . والعشرة . . والصداقة . .

– « وما جدوى كل هذه الأشياء . . قل لى ما فائدتها إن لم تتحول إلى مشاركة فى الخير . . والشر . . ثم إنى لم أفعل شيئاً بمفردى . . كل ما صرفته دفع كل واحد من الجيران نصيباً فيه . . ليس لى فضل دفع أى قرش زيادة عما دفعه أى واحد منهم . »

وصمت ريثما يتخلص من نوبة السعال التى دهمته . . ثم أردف :

– « أنت تعرف أنهم . . « صعايدة » وبالنسبة لهم مسألة تقاليد » . .

أدرك عمار بإحساسه أن عبارته الأخيرة . . عن الصعايدة . . كانت خالصة . . بلا تفاخر هذه المرة . . لو سمعها منه على المقهى أيام كان القلب خالياً . . ربما أوحت له بعديد القفشات يسلخ بها جلده . .

وعاد عمار يتحدث عن التكاليف . . شاكراً لعباس مجاملاته . . فلم يجد

الأخير بدًّا من أن يحسم الموقف . . فأقسم بالطلاق أن لا يدخل جيبه أى قرش مما أنفقه . .

وغمرت المفاجأة إحساس عمار بالدهشة . . فأخذ يحدق فيه مشدوهاً . . كان يحسب اعتراضه مجرد مجاملة . . وليس إصراراً نهائيًّا لا يقبل المناقشة . . من خلال ذهوله شعر بالحب يتفجر فى قلبه بعد أن ولد من خلال اللحظة الغامرة لعباس . . والحيران . . ولكل الناس . وتألق وجهه بفرحة الإحساس الجديد . . الآن . . كم يحرفه الحنين إلى المقهى . . والشوق للصحاب . . للناس . .

ولم يجد الكلمات . . ما يشعر به أغلى من أن يبتذله با لكلمات . . أمسك بيد عباس فى غمار انفعاله . . وقد تضوعت الحيوية فى عينيه وهو يطبق عليها ويجذبه منها خارج البيت . .

– « حاج عباس . . قم معى . . الواحد نفسه يقابل أصحابه . . ويلاعبك عشرة طاولة » .

كتبت فى مارس سنة ١٩٥٤ ونشرت بمجلة «قصتى» فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ .

الفتى الذى جاء متأخراً

نظراتى طائرة فى كل اتجاه . تتفرس بلهفة مهبولة فى كل أنثى قادمة من بعيد .. لا أثر لفتاتى بعد .. بادرت بالخروج قبل توقيتى المعتاد حتى لا تسبقنى . لا بد أن أراها . اتخذت القرار ولن أتراجع . ستكون لى حبيبة تخصنى . هى بالذات ستكون حبيبتى . بعد اليوم لن يظل ربيعى خلف أسوار الحرمان لمجرد أنى خائف من التجربة .. ومن أبى ! ! القلق يشوى مشاعرى ونظراتى طائرة تمسح مخارج الشوارع ومفارقها . والعربات تتوقف عند المحطة لثوان ثم تواصل سيرها وتدعنى وحيدا .

أرابط هنا منذ السابعة .. من غير المعقول أن تكون سبقتنى ! ! لابد أن أراها . ربما تزايلنى الجرأة التى اتخذت بها القرار .

ربما .. من الجائز أن تتغلب فى النهاية مخاوفى وكل الرواسب الكامنة تحت فى أعماقى .

ربما ينتصر أبى ! كثيراً ما خطرت لى أفكار جسور ولكنها دائماً تموت بمجرد أن تقفز صورته فى مخيلتى . بذقنه . ووقاره . ومسبحته .

قاومت لهاث قلبى . وشبق قلبى لرائحة الأنوثة .

كلما هممت بالاستجابة انبرت لى تحذيراته من النساء عموماً . ومن نساء القاهرة بالذات .

حاولت أن أبتعد عن النساء بعدى عن الوباء . تحاشيت حتى الاتصال بزميلاتى فى الجامعة .

قطعت صلتى نهائيا بمروان ابن خالتى لأنه طرق بابى ذات ليلة وبجانبه واحدة منهن .. أنثى فى غرفة ابن « الحاج محجوب » شيخ « الطريقة الرفاعية » . إذن خلفت النار رمادا .. إلى هنا لا تعرفنى ولا أعرفك يامروان ! !

لم يكن سلوكى بالأمر اليسير على شاب مثلى شاعرى الوجدان . كنت أعانى تمزق الصراع بين أحلامى ومخاوفى فأنفس عن حرمانى بقراءة أشعار الحب . وروايات الغرام . أبكى مع « ماجدولين » وأتقاسم مع « فرتر » عذابه .. عشت الحب رواية وقصيدة . كنت أجفل من أن أعيشه تجربة . أخاف من الحب الذى أراه حولى عندما تظلم السينما ! ! ما أريده هو الحب الآخر .. حب « قيس » بطهارته . و « سيرانودى برجراك » بعفته . ضميرى يعوى كلما هممت بالاستجابة لإغراء أنثى من فتيات « الحارة » وزميلات الجامعة . يعوى ويذكرنى بتحذيرات أبى وضياع مستقبل علوان ابن عمى وغيره من شباب بلدتنا بسبب نساء القاهرة .. ليكن ما يكون .. سأدخل التجربة ! !

الفتاة متجاوبة معى . نظراتها قالت لى ألف مرة أنها مستعدة أن تبادلنى

عاطفتى .. ها هى قادمة . بالتأكيد هى . أعرف خطواتها . تسريحة شعرها . ألوان كل فساتينها .. عصفورتى .. تعالى . قلبى أزمع نهائيا أن تكونى حبيبته . الأنوثة المتفجرة من كل شىء فيك أسرت أحلامه . ليغضب أبى ليس له عندى سوى أن أنجح فى نهاية السنة ! !

ابتسمت لى وهى تدلف داخل الأتوبيس .. كعادتها . وقلبى تتعالى خفقاته خلفها !

أخيراً ستكون لى حبيبة تخصنى . لكل واحد من زملائى فتاته التى يرينى صورها . وهداياها . وتنهش الغيرة قلبى عندما يحدثنى الصحاب عن المواعيد . والقبلات . ولا أجد لدى ما أتحدث به فألوذ بالصمت . وشىء ما يمطر الدموع فى أعماقى .. لماذا أجفل من الفتيات ؟ ألست رجلا ؟ ! كل الزملاء يؤكدون لى بأننى على جانب من الوسامة . وجاذبية الرجولة . ولا شىء يعيبنى سوى « صعيديتى » أكثر مما ينبغى .. عندما كانوا يلاحظون شدة خجلى وارتباكى أمام الزميلات ، كانوا يتخذون من هذا مادة للسخرية والتندر بى وبالصعايدة أمثالى ! !

وصل الأتوبيس عند الجامعة . لم أهبط كالعادة . نظرت إلى الفتاة فى دهشة .. بعد قليل ياحلوتى . ستعرفين لماذا .. سأدخل التجربة ! ! أنت التى خفق لها قلبى . على أن أخطو أول خطوة وبعدها تصبحين حبيبتى .. فى الأتوبيس تكونت علاقتنا الصامتة . دائماً كنت ألقاها صباحاً فى المحطة التى أركب منها فى مواعيد متقاربة من مواعيد ذهابى إلى الجامعة . خطر لى أنها مدرسة . ثم عرفت بعد ذلك من خلال حديثها مع صديقة كانت ترافقها .. أنها

تشتغل لدى خياطة ذات اسم معروف فى المدينة . لم أستطع أن أقاوم سحر جاذبيتها . نظراتى كانت تنفلت برغمى لتناجيها . وأبدا لم أجرؤ على تحقيق أمنيتى فى التعرف بها . وتأكد لى أنها فطنت لاهتمامى بها . كانت تبادرنى بابتسامتها كلما رأتنى . ولكنى لم أتقدم خطوة واحدة . كان يفصلنى عنها خجلى . وأبى . وصعيديتى ! !

منذ أن واجهت مرحلة اليفاعة وأبى يحرص على أن تكون حياتى تحت تصرفه . أعطانى « عهد الرفاعية » وأنا فى الثانية عشرة من عمرى . حتى الصداقات لم يترك لى حرية تكوينها إلا فى مجال من ربطنى بهم من شيوخ المساجد ورجال الطريقة . كانت تثير دهشتى كراهيته للمرأة . ودائما كان يبث فى تعاليمه بكراهيتها أفهمنى أن وظيفتها فى العالم أن تنفث الشر فيه . والخراب . لهذا خلقت . طلق أمى بالثلاثة . لأنها رفعت صوتها فى وجهه تعترض على تزمته بعد أن رآها تطل من نافذة دارنا لتتفرج على أحد الحواة التى كان يعرض ألاعيبه المثيرة على الرجال فى الميدان . زوجة الشيخ محجوب . كيف تثقب وجهها من بعيد نظرات الغرباء ؟ !

كل هذه كانت حواجز تفصلنى عن العوالم الساحرة الواعدة فى عينى فتاتى .. ذات مرة .. استنجدت بلهفتى ونزلت خلفها . عندما رأتنى تعمدت أن تتمهل فى سيرها . ولكن . كلما تباطأت هى شلت خطواتى أنا . وأخيراً استدارت نحوى وحدجتنى بنظرات مغتاظة ودلفت داخل العمارة التى تشتغل بها .. عدت يومها إلى غرفتى أذيب قلبى دموعاً ساخنة . ونمت ليلتها وقصة « آلام فرتر » بين أحضانى . بل راودتنى فكرة الانتحار أسوة بفرتر ! !

وذهبت فى الصباح إلى كليتى .. مكتئب الوجدان . حزين القلب . وما أن سألنى صديقى « رمزى » عن أسباب ما يبدو على من تعاسة حتى أخبرته بحكايتى معها . فانطلق رمزى يسخر من « خيابتى » ثم نصحنى بأن أقدم على التجربة بجسارة وثقة . فأنا بالذات أحوج الناس إلى تجربة حب هى وحدها الكفيلة بأن تنتشلنى من أزماتى النفسية . وعقدى .. قلت له بأننى أهفو للحب . ولكنى أريد واحدة على غير شاكلة فتيات اليوم . فاندفع يسخر من سذاجتى وعندما استعار منى بعدها رواية (بول وفرجينى) التى عربها « المنفلوطى » بعنوان « الفضيلة » حتى جاءنى يعيد لى الكتاب وهو يقول لى بأنه فهم سرى . أمثال تلك الكتب هى التى تصنع مأساتى . فأنا أعيش الحياة وأتعامل مع العالم بقيم لم أكتسبها بمعاناة الواقع بل أستمدها من تعاليم كتب محنطة . ومن أجل هذا أشعر بالغربة . قال لى بأن قيمى قد اندثرت . وأننى جئت متأخراً . جئت لأعيش فى عصر لا تنتمى إليه روحى ! !

الفتاة تخالسنى من بين أكتاف الركاب نظرات متأهبة ومشجعة . لن أتراجع هذه المرة يافتاتى . رمزى يعايرنى بأننى جئت متأخراً .. قلبى يقول لى بأنك غير فتيات اليوم .. لن يكون حبنا من طراز الحب الذى يحدثنى عنه رمزى والزملاء . المهم .. الآن كيف أواجه البداية . أنا لا أجيد أساليب الشبان فى مغازلة البنات . كثيراً ماكانت تجتاحنى الدهشة عندما أراقب شابا يعاكس إحدى الفتيات ويهمس لها بعبارات الإعجاب . وبعد الدلال المؤقت من جانبها أجدهما بعد قليل قد تفاهما وكأنهما يعرفان بعضهما من قديم .. ! أى شىء يسحرون به الفتيات ؟ هكذا شبان هذا العصر الذى يتهمنى رمزى بأننى لا أنتمى إليه ! !

ترى كم السنوات التى لبثها « عنترة » قبل أن يكاشف « عبلة » بوجده ؟ ! .. كيف أبدأ معها .. سأتقدم بمنتهى البساطة وأفضى لها برغبتى فى أن أتعرف عليها. لو صدمتنى سوف أنصرف مباشرة. ليست لدى السماجة التى تجعلنى أتابع واحدة صدتنى لأول وهلة . أعرف نفسى جيداً .. سيدهمنى الارتباك وتنهار معنوياتى .. لا .. فتاتى طيبة . لن تجرح كبريائى . إنها متأهبة لهذه اللحظة تنتظرها . كل ما يصدر عنها يؤكد هذا .. غادرت مقعدها عند « سينما أوبرا » فنزلت خلفها أقتفى أثرها . وانعطفت إلى « شارع عدلى » فعرجت أتابعها . وكما حدث فى المرة الأولى تمهلت فى سيرها . وأيضاً لم أجرؤ على الاقتراب منها . دهمنى نفس الارتباك . وتثاقلت خطواتى ونبضات قلبى تتوالى سريعة ملتاثة ! !

فتوقفت عند أحد محلات الحقائب الجلدية تتفرس فى المعروضات . وأنا أنقل خطواتى بصعوبة .. وعندما دنوت منها أدارت رأسها عفواً نحوى .. وقد تألقت ابتسامة فاتنة فوق ثغرها . كيانى يرتعش . قلبى يوشك أن يسقط من بين أضلعى . قدمى تخبط فى أختها .. ! قبل أن ألتقط أنفاسى لأواصل سيرى وجدتها تعترض طريقى . وتتصدى لى بجرأة متناهية ثم تسألنى عن سبب تخلفى اليوم عن الذهاب لكليتى .. ونفذت نظراتها ماكرة داخل عينى . هاتفة بأنها تعرف ! تعرفين فلم السؤال ياحبيبتى ؟ .. أجبتها والارتباك يقطع كلماتى بأننى فعلت هذا لأشاهد فيلماً جيداً تعرضه « سينما مترو » ولما كنت أبغض صخب حفلات المساء فإنه يروق لى دائماً أن أدخل حفلات العاشرة . قلت كلماتى متحاشياً النظر إليها .. أكاذيبى دائما تعريها عيناى ! !

ابتسمت من جديد وما زالت نظراتها فى عينى ثم انبرت تعرب عن ارتياحها

إذ تكتشف أنى أشاركها نفس هوايتها المفضلة .. السينما هى معبودها .. ولولا أنها مرتبطة الآن بمواعيد العمل ما توانت عن مصاحبتى لمشاهدة هذا الفيلم الذى سمعت الثناء عليه من صويحباتها .. عندما وجدتنى لم أنبس كلمة عادت تسألنى إن كنت أرضى بتأجيل دخولى من أجل خاطرها لترافقنى إلى حفلة السادسة ! !

غبى أنا .. معذرة يافتاتى كان يجب أن أنتهز الفرصة وأدعوك من تلقاء نفسى .. قطعت هى كل الأشواط . ما أن أبديت الموافقة حتى اقتربت منى تهمس لى . لتعدنى بسهرة . مثيرة . ممتعة بعد خروج السينما فى بيت « أبلتها » الخياطة .. هناك فتيات ساحرات للترفيه عن رواد « بيت المدام » ويمكننى انتقاء واحدة منهن إذا لم ترق هى لى . ولن تكلفنى السهرة كثيراً .. على الأكثر .. ربما خمسة جنيهات ! !

قالت كلماتها وهى تشد على يدى . ثم واصلت سيرها بعد أن غمزت لى بعين واحدة ! !

قاومت الإغماء الذى كاد يدهمنى .. قاومته واقتلعت قدماى من فوق الرصيف لأستدير عائداً .. وواجهتنى أكوام المطبوعات فوق « سور الأزبكية » فاتجهت نحوه .. عساى أجد بقية ما ينقصنى من كتب المنفلوطى ! ! .

كتبت فى فبراير سنة ١٩٥٩ ونشرت بمجلة «الثقافة» فى أبريل سنة ١٩٦٥ .

العجوز .. والدنيا .. وأنا

لم نكن نعرف نحن الصغار من أين جاء « العم عبد المسيح » فلم تكن له أسرة ينتمى إليها مثل كل الناس فى بلدتنا .. وحتى الكبار كانوا يجهلون ذلك أيضاً .. إنهم لا يعرفون عنه إلا أنه جاء ذات شتاء إلى بلدتنا .. وراق له المقام فيها .. يفترش من الصباح حتى المساء ملاءته القديمة الرثة المليئة بالثقوب .. ويعرض عليها بضاعته من الفواكه التالفة المعطوبة التى يجلبها من سقط الكروم .. ويبيعها لأطفال الشارع بالملاليم .. ويظل طول النهار يتغنى بمواويل حزينة تشكو الزمان .. وغدر الأيام .. وتلوم أفاعيل الدنيا بالرجال .. ثم يدلف بالليل داخل (خرابة) مهجورة .. كانت فى الماضى معصرة زيوت لعائلة الأشرف .. وأصبحت الآن مأوى للعفاريت والأشباح ومكاناً لقضاء حاجة عابر السبيل ..

كان العم (عبد المسيح) بفمه المجوف وأسنانه السوداء المتآكلة .. وشفته

السفلى المتدلية وذراعه المبتورة .. وشاربه الكث الأشيب .. والمعارك المضحكة التى تنشب بينه وبين عمال المجلس البلدى لامتناعه عن دفع تعريفة (أشغال الطريق) كان بوضعه هذا ظاهرة مثيرة تحرض فينا نحن الصغار نزوات الطفولة فينال من أفاتين شقاوتنا ما يجعل الشارع يتندر كل يوم بحوادثنا معه .

كانت تغريني رأسه الجرداء العارية التى يتركها بلا غطاء ، بمعاكسته فأرشقها بالحصى الصغير الذى أطلقه من « نبلتى » ثم أنتهز فرصة تغفل فيها عنى عيناه لأنكش برجلى ما فوق الملاءة من جميز وباذنجان وخضراوات.. وأنثره فى عرض الطريق .. ثم أجرى مغتبطاً بقهقهات الصغار .. والكبار أيضا .. فكثيراً ما أغرانى بعضهم بمناوشته ليجدوا فى اهتياجه وشتائمه ، وهرولته المضحكة خلفى ، مصدراً لمسرات نزقة تخفف من رتابة أيامهم فى فترات البطالة .. وكثيراً ماكان يمسك بى .. فأرتجف متوقعاً أن الغيظ سيدفعه لأن يفترسنى .. ولكنه لم يكن يزيد على أن يفرك أذنى لينتزع منى وعداً بأن لا أعود لمثلها .. ثم يتركنى لاعناً كل الصغار الأبالسة (بخات) الشياطين .. وبعد دقائق فقط أعود لمعاكسته .. ورغم هذا لا يشكونى قط لأبى .. حتى أننى اعتقدت بأن أفاعيل تلك ربما كانت تسره .. وتوطدت بينى وبينه بمرور الأيام صداقة وثيقة ..

فقد عرف كيف يستهوينى بهداياه الصغيرة من حبات العنب وأوراق الخس و (طخوخ) النبق .. ومواويله .. وحكايته الطريفة التى تأخذنى إلى عوالم ساحرة غريبة .. فأجلس على الدوام بجواره .. أحافظ على بضاعته وأحميها من عبث الصغار .. عندما يذهب إلى الكروم ليشترى فضلاتها .. وأنوب عنه فى البيع عندما يتكاثر الأطفال حوله فى المواسم والأعياد ..

ورغم الألفة التى توثقت بيننا كانت تحيرنى غرابة أطواره .. فأحياناً كان يبدو عطوفاً يذوب رقة وحنانا .. ويوزع الفواكه على الأطفال ويتابع تحركات دجاجات عواجيز الحارة وينفق ساعات فى البحث عن (عنزة) خالتى (قلفدان) عندما يروق لها أن تفلت من مربطها أمام البيت لتتفسح فى سوق البرسيم .. وأحياناً كان يبدو شرساً فظًّا .. ينتزع البضاعة من يد الزبون لأدنى مساومة .. وكثيرا ماكانت تستغرقه نوبات المسرة فينطلق مردداً مواويله .. متغنيا بها .. حتى ليتوقف المارة للإصغاء إليه .. وتنطلق من صدورهم تنهدات الشجن .. وما أكثر كذلك ماكانت تدهمه نوبات الكآبة فيلوذ بالصمت ويقضى الساعات واجما تائها .. بدون أن يبادلنى كلمة .. وأحياناً كنت ألاحظ وميض كآبة مبهمة عميقة تطل من نظرات صاحبى العجوز وتعكسها إطراقته الساهمة المديدة عندما تخطر أمامنا واحدة من فتيات الحى متهادية فى دلال صباها .. وهذا ماكان يجعل (عميرة) بائع القصب يؤكد لنا بأن العجوز يطوى صدره على سر غرام يحتمل أن يكون هو الذى قذف بحياته إلى دنيا الضياع « وياما ياولاد الغرام قتل الجدعان » . هكذا كان عميرة يقول لنا عندما نلتف حول (فرشه) فى أمسيات القمر .. وتأتى سيرة العجوز على بالنا .

ما أكثر ما تاقت نفسى لانتزاع سر العجوز الذى لم يحدثنى أبداً عن ماضيه .. وكنت أحجم عن سؤاله بدافع الخوف من أن يرانى متطفلا ينتهك أسراره ..

وحدثت المعجزة ذات ليلة وتكلم العجوز ..

كانت ليلة عيد الميلاد .. عاد ليلتها من الكنيسة مبتهجاً سعيداً .. يتبادل

النكات مع عواجيز الشارع .. ويحضن الأطفال ويوزع على الفقراء منهم ما فاض لديه من مزامير ويداعب بكلماته فتيات الحى العائدات من الكنيسة .. ويمنيهن بالعرسان أمثاله .. لم أره منطلقاً مسروراً كما رأيته فى تلك الليلة ..

ولكن مرحه لم يدم طويلا .. فما أن أغفى الشارع من حركة الأطفال .. وأغلق (المعلم تومة) (الحوش) على خنازيره حتى قبع العم (عبد المسيح) تحت مصباح (الزقاق) يحدق فى النجوم وأنا جالس صامتاً بجواره قد كان مسموحاً لنا نحن الصغار بالسهر خارج البيت فى المناسبات الدينية بلا عقاب .. ابتدرنى فجأة بعد أن طال صمته وهو يلفظ تنهيدة حارقة :

— إيه .. دنيا .. حياة متعبة ياولدى .

قالها وأطلت التعاسة من نظراته الخابية ثم أشاح بوجهه بعيداً ربما امتدت يده لتمسح دمعة سالت على وجهه ..

وعاد الصمت من جديد بدون تعقيب منى .. فقد تعودت أن أستمع إلى أحكامه عن الناس والأشياء بدون مناقشة . نظر إلى طويلا وما زالت الكآبة تختلط بالدموع المترقرقة فى عينيه .. ثم انطلق يزيح الغطاء عن صدره .. ويحكى ..

زمان كان العم (عبد المسيح) فتى .. ولا كل الفتيان .. أسمر كالحنطة صلباً كالحديد .. وسيما ممشوقا . يهتف جماله بالرجولة : ويرتاد الأسواق بأقمشته وتتمناه كل عذراء فى تلك القرية الصغيرة التى تحتضن الجبل من « أسيوط » .. ورغم تهافت نساء القرى على رجولته .. ظل عفيف القلب .. نظيف الجسد .. لم يتعلق فؤاده بأنثى غير ابنة عمه (المعلم قلدس) شماس الكنيسة .. وكانت

عايدة تدخر له كل قلبها .. وتوقف عليه كل أحلامها .. وما أكثر ما تلاقيا خفية .. وبثّها لواعج الشوق .. وعذابات اللهفة إلى اليوم الموعود .. بدون أن ينال منها ولا قبلة الشوق .. ولا حتى ضمة الحنين ..

وما كان يهم أن يضمها إلى بيته بعد أن زوج شقيقاته الثلاث . . وأصبح « جاد الله » الصغير رجلا فى وجه الأيام . . حتى انتزعته (السلطة) . . كما انتزعت غيره من فتية مصر وقذفت به يقاتل جنودًا ليست بينه وبينهم خصومة . . ولا يعرف لأى سبب يحكم الموت بينه وبينه . . كانت فترة مريرة من حياته فالموت يترصد له فى أرض غريبة . . ولم يكن له من عزاء سوى خفقات قلبه المتجاوبة مع خفقات قلب ينتظره فى الصعيد . .وأعادوه بعد ذلك مبتور الذراع ليجد عصفوره فى قفص صائد لم يكن غير شقيقه الصغير . . لم تكن عايدة خائنة . ، ولم يكن جاد الله نذلا . . فقد أبلغهم العمدة بأن إشارة من البندر وصلت وتفيد بأن (عبد المسيح) قد أخذه الرب إلى سمائه . . وكان لابد أن يهرب من الذكرى . . ومراتع الهوى . . ومن نفسه أيضًا . . فما أكثر ما راودته الجريمة فى ذلك الحين . . .

« ليس لك فى (درنكة) عيش ياعبد المسيح » . . كان هذا قراره . .

وانطلق فى الدنيا . . شريدًا يحط رحاله فى بلد ليغادرها إلى أخرى . . يكسب . . ويخسر . . تتخم النقود جيبه فترة . . وينام على الطوى أحيانًا . . يشرب « الويسكى » أحيانًا . . ويعب (العرق) فى فترات العوز . . وعشقته أكثر من واحدة من راقصات الموالد . . وأناخت رأسها على صدره أكثر من واحدة من الضائعات فى الليل . . ثم حط الرحال أخيرًا فى « أخميم » . . متعبًا

مكدودًا ينشد الموت فى ستر . . جاء مع فرقة راقصة متجولة من الفرق التى ترتاد الأقاليم فى موالد الأولياء . . وعادت الفرقة بدونه . . وازدادت حياتى التصاقًا بحياة الغريب . . كان هو البساط السحرى الذى طافت به طفولتى آفاق الحياة العريضة . .

واستغربت عندما افتقدته فى الشارع ذات يوم وأنا عائد من المدرسة متأبطًا كراريسى فقد كان وجوده تحت الجدار ببضاعته من المعالم التى تحدد ملامح شارعنا ودلفت داخل « الخرابة » لأجده منهمكا يلف سيجارة من النفايات التى يبتاعها من صبية الشوارع ويبدو عليه الإعياء ويسعل بشدة . . لم تكن نوبة طارئة . . فقد لاحظت فى الأسابيع الأخيرة الوهن الذى بدأ يدب فى جسد صاحبى العجوز . .

حاول أن يبتسم ويتصنع العافية عندما فوجئ بى أمامه أحدق فيه جزعاً حزينًا . . وابتدرته والألم يفتت قلبى :

– عم عبد المسيح . . لقد أعطيت للحياة من كفاحك الكثير . . وآن لك أن تريح نفسك من عناء السعى وراء لقمة العيش . . من حقك أن توكل بنيافة (المطران) أمرك فيكفل لك معاشًا ويأويك فى أوقاف الكنيسة مثل (أم برنابة) و (المعلم سدرة) وغيرهما . .

انتفض العجوز وبرزت عروق رقبته نافرة متيبسة . . وقد توهجت نظراته بالغضب . . حتى إننى اعتقدت بأن يده ستمتد لتصفعنى . .

ولكن غضبه سرعان ما ذهب وأطلت بدلا منه نظرات عتاب حزينة . .

– يا ولدى . .

قالها مختنقة بغصة فى حلقه وصمت ريثما أشاح بوجهه حتى لا يرينى دموعه التى انهمرت من عينيه ثم أردف ؟

– طول عمرى . . أقتات بعرق جبينى . . فإذا جاءت ساعتى . . فليكن هذا هنا فوق هذا (الحصير) . . ولم أجد داعيًا للمناقشة . . فأنا أعرفه يعنى دائمًا ما يقوله . . ثم خرجت لأعود الى بيتنا وأنا أتمنى له العافية . .

ولم يغادر «الخرابة» هذا اليوم . . واشتدت به العلة . . وأخذ يبصق دما . . رجوت أمى أن تأويه فى بيتنا فلدينا قاعة فى الدور الأول خالية ويمكن أن نعدها له ورحبت أمى بذلك فما أكثر ما أسدى لها العجوز ولغيرها من نساء الحارة من خدمات وعندما ناشدته أن يستجيب لرغبتى وينتقل إلى بيتنا لتعتنى به خالتى (غنيمة) خادمتنا العجوز حتى تعاوده العافية . . عارض فى البداية ثم وافق أخيراً عندما وعدته بأن نأخذ منه أجر (القاعة) كساكن بنقوده . .

نام عندنا بضع ليال ثم استدعانى ذات صباح يقول لى وهو ينتزع الكلمات بصعوبة :

– ياولدى . . سأموت . . ولا أحب أن أموت مثل كلب . . إليك ما ادخرته لهذا اليوم فليصل (المطران) على جثمانى . . ولتخرج فرقة من (الشمامسة) أمامه . . والباقى ليس لى سواك من يرثنى . .

ثم اشتد سعاله فاستطرد بنبرات خافتة ومتقطعة وقد امتدت يده تزيل الدموع التى انهمرت من عينى :

– ليشهد الرب يا ولدى . . أننى أحببت فى دنياكم ثلاثة . . عايدة . .

وراقصة فى طنطا أعطتنى حنانها فى فترة كانت الدنيا فيها ضدى . . ثم أنت يا ولدى . .

ودفع إلى بكيس نقوده وصليب نحاس صغير كان معلقا بخيط من « الدوبارة » فى صدره . . وماتت فى فمه كلمات حاول أن يقولها . . فلبث يحدق فى بنظرات منطفئة . . وفى المساء جاءتنا (غنيمة) تخبرنا بأن العجوز فاضت روحه . .

ووضعنا جثمانه فى صندوق خشبى رفض (سمعان) النجار أن يأخذ ثمنه . . وخرجت البلد كلها تقريباً وراء « نعشه » . . ودفعنا به إلى مقبرة من مقابر الصدقة . كانت المقبرة بلا شاهد وبلا أسماء . . لم يكن يتوسط سدتها سوى صليب خشبى صغير . . فأخرجت مطواتى وحفرت بها على الصليب اسمه . .

كتبت فى يناير سنة ١٩٥٥ ونشرت بمجلة «قصتى» فى نفس العام .

العاملة

خرجت من المشغل وحدها ! . .

لأول مرة تعود إلى البيت بدون مصاحبة واحدة من الزميلات أو أكثر فى طريقها . .

تلكأت فى دورة المياه عامدة . . حتى انصرفن تماما . . استولت عليها الرغبة فى أن تنفرد بنفسها . . وجود الأخريات بجانبها ينتهب من نشوة الانطلاق مع أحلامها . . الدنيا الآن فى نظرها غير الدنيا . . كل شىء أخذ لونا جديدا يبتسم فى عينها . . ولولا خوفها من أن يظن بها المارة الجنون لغنت متجاوبة مع هناء قلبها . . الأغنية التى طالما رددتها مع المطرب الذى يتغنى بها وهى تحلم بالحب . . تلح الآن عليها ، ترددها الآن من الداخل روحها . . أول مرة تحب يا قلبى . . أول مرة . . أول مرة ! ! لولا أن يظن بها الناس الجنون . .

أو الميوعة لا تدفع صوتها يرددها للدنيا بأسرها . . أخيرا . . مثل كل البنات أصبح لها حبيبها . . الكلمات المترعة عذوبة ورقة وحنانا . . ورجولة . . تدغدغ بالفرحة روحها . .

(سميحة . . هناك مسألة تشغلني ولابد أن أفضى إليك بها) ويصمت قليلا بعد أن يحدق فى عينيها ثم يعاود حديثه :

(سميحة . . عندما رأيتك هنا أول مرة منذ أسابيع . . لم أشعر بأنك غريبة عنى أبدا . . كنت حلماً فى خيالى . .أبحث عنه فى عيون كل البنات . . وها أنذا أخيرا أجده فى عينيك . . سميحة . . إننى أحبك) أصغت إليه ساعتها مشدوهة . . مرتبكة . . يكاد يغمى عليها من وقع المفاجأة . . والأرض توشك أن تميد تحت قدميها . . مفاصلها سائبة . . وشىء ما يلهث فى أعماقها . . وكل أحاسيسها مبهورة . . متوترة . . ولم تجد لارتباكها خلاصا غير أن تتجه نحو الباب هاربة . . والانفعالات المتزاحمة تمور فى صدرها . .

لم يكن هذا فى خاطرها أبدا . . حتا لم تكن مغفلة تماما . . كانت تفطن بغريزتها كأنثى لنظراته الجريئة الهاتفة التى تطاردها بإصرار كلما التقى بها . . ولكنها لم تعط الأمر أهمية تشغلها . حسبتها مجرد نظرات معجبة يلقيها شاب متوثب الرجولة على فتاة حلوة بحكم العادة ليس إلا . . لم يطف بخاطرها أى تفسير لنظراته أكثر من هذا . . اعترافه اليوم . . أكد مدى غباء إدراكها . .

وكيف لم تضع فى اعتبارها أنه لم يكن يزور المشغل إلا نادراً . . عندما يمرض أو يسافر والده . . ولكنه بعد أن رآها توالت زياراته . . ولقسم التطريز بالذات . . !

« . . ولكن . . هل كان من المعقول أن يخطر لى بأن مثله . . يمكن أن يقع فى غرام عاملة مثلى كادحة . . تقتات بعرق الجبين . . مهما كانت فاتنة . . حكاية (سندريلا) مجرد خرافة . . فات زمانها . . خلاص . . لا يمكن أن تحلم بوقوعها فتاة فى عصرنا ! ! » .

ومن جديد تستعيد كلماته وتطلق العنان لخواطرها . .

« . . ولكن . . أنت مخطئة فى تصرفك ياسميحة . . وغبية أيضاً . . كيف هربت منه هكذا فى نزق وبلاهة . . كان يجب أن تقولى شيئا . . أى شىء يتشابك بعده الحديث . . أن تجاوبيه بأية كلمة تصنع جسرا للمستقبل . . تصرفك هذا . . كان يعتبر ميزة فى بنات زمان . . فى جيل أمك . . الخجل والارتباك يعتبره الشباب الآن نقصا يعيب بنت عصرنا . . هذا ما تقوله نجوى بنت خالتك طالبة الجامعة . . التى تفخر وهى تعترف لك بأنها تراقص زملاءها فى الكلية . . ولا تجد فى ذلك ما يعيبها . . لأنها فتاة عصرية نجت شخصيتها من عقد بنات البيوت اللواتى تشكلهن أخلاقيات أمهات ينتمين لعصر كانت المرأة فيه مجرد أمة . . ليس إلا .

بالتأكيد . . نجوى ستقول عنك عبيطة . . لو حكيت لها ماحدث منك ! ! » .

وتتصارع فى أعماقها الخواطر مؤنبة ومبررة . . !

« لكن . . ماالذى كنت سأفعله . .

. . البنات الأخريات يجدن التصرف فى أمثال تلك المواقف . لأنهن يشاهدن أفلام السينما ويقرأن الروايات الغرامية . . ماحدث هو التصرف الطبيعى

بالنسبة لى أنا . . ما الذى كنت سأفعله . . هل كنت سأدخل فى حضنه . . أم أركع أمامه . . ما حدث كان طبيعيا بالنسبة لى ! ! »

وأفاقت من خواطرها على رذاذ من الوحل تناثر فوق ثوبها من جراء حجر قذف به أحد شياطين « الحارة » الصغار فى فجوة تترسب بها مياه ضحلة . . وامتدت يدها تزيل الوحل . . فتناهى إليها صوت « رجب المكوجى » عن قرب منها . .

. . « ولا يهمك ياجميل . . رجب فى الخدمة . . تحت أمرك . . يغسله ويكويه ويهدى غيره عشرة . . المهم الحلو يرق ويفهمنا ! ! »

وأشاحت بوجهها بعيدا . . فى تجهم وامتعاض . . أكان من الحتم أن ترتطم بالواقع . . وهى فى أوج أحلامها . . لقد دأب رجب يلاحقها بغزله وتقربه . . بدون أن تعيره أى اهتمام من جانبها . . حقا . . إنها لا تستطيع أن تقول فى حقه ما يعيبه . . فهو طيب القلب يتطوع بخدماته لكل من يحتاجها من الجيران . . كما أنه يكسب كثيرا من مهنته . . وتتمناه كل أم لبنتها . . والكثيرات ينصبن حوله الشباك . . ولكن لم ترق له كما يبدو سواها . . برغم ما تبديه نحو تقربه من جفاء . . فماذا تفعل هى بجلبابه البلدى . . وطاقيته ، إنها تريد « أفنديا » تفخر بذراعها فى ذراعه وأناملها متشابكة مع أنامله . . يتسكع بها فى شوارع القاهرة الأنيقة . . ويدلف بها داخل دور السينما . . وينشلها من عفونة الحارة ! ! . .

ودلفت إلى مسكنها فى نهاية الحارة . . وألقت بما تحمله فى يدها من أرغفة الخبز وأقراص « الطعمية » إلى أمها فانقض عليها إخوتها الصغار فى شراهة ، واعتذرت هى بأنها تناولت فى المشغل « سندوتشا » . . واستلقت على السرير

تمضغ على مهل أحلامها ! !

أخيرا . . مثل كل البنات أصبح لها حبيبها . . باشمهندس . . قد الدنيا . . وأبوه صاحب المشغل فى نفس الوقت ! ! ونامت ومعها أحلامها . وتوجهت فى الصباح إلى المشغل تفيض حيوية . . وتتألق أنوثة . . وأجالت بصرها فى الفناء وسريعا التقت عيناها بنظرات « حمدى » تكاد تلتهمها وهو يبتسم لها فغضت بصرها وأطرقت نحو الأرض خجلى وعلى فمها تتردد ابتسامة متلكئة !

وبعد ساعة اقترب حمدى منها متظاهرا بإلقاء تعليماته على رئيسة عنبر التطريز . . وتحين فرصة غفلت فيها عنه عيون البنات . . وهمس فى أذنها بأن تقابله فى المساء عند كوبرى الجامعة . . سيكون هناك فى انتظارها . . ثم خرج بخطوات واثقة . .

وغمرت الفرحة كيانها . . الحبيب يواعدها . . كم كانت الكآبة تجرف روحها عندما تشاهد كل حبيب وقد أمسك برسغ فتاته دالفا بها إلى السينما . . أو إلى واحد من « الكازينوهات » المتناثرة على ضفاف النيل . . ها قد أصبح لها هى الأخرى حبيب يواعدها . . بالطبع سوف يذهب بها إلى سينما من الدور الفخمة التى كثيراً ما تمنت أن ترتادها . .

. . فى الظلام سوف يبثها نجواه . . سيحدثها عن أحلام الغد . . عن العش الجميل الذى ستغرد فيه سعادتهما . . سيشكو لها جواه . . حنينه . . أشواقه . . ويطلب منها أن تكون زوجته . . ألم يقل إنها حلمه الذى كان يبحث عنه فى عيون البنات . . وفى عينيها رآه ! !

وتجيبه هى بأن ذلك أجمل أمانيها . . ولكنها لا تستطيع . . لا تستطيع . .

لا لأنها لا تريده ولكن . . لأن لديها أما مريضة تصرف عليها . . وأخوة صغار ليس لهم من عائل سواها . . وهنا سيكون شهما ونبيلا فيؤكد لها بأن أمها خلاص . . أصبحت من الآن أيضا أمه . . وكل أطباء البلد سيكونون تحت أمرها . . وأيضا سيكون مسئولا عن إخوتها . . سوف يرتدون أجمل الملابس . . ويدخلون أفضل المدارس . . وستراهم فى الغد رجالا . .

ياسلام . . أيمكن أن يحدث هذا . أن ترى أحمد مهندسا . . وكمال ضابطا . . وعبد الحميد دكتورا ! لبثت الأحلام تراودها طيلة فترة العمل وهى تهيب بالنهار أن يعجل برحيله . . فالمساء موعد حلمها ! ! وارتدت فى المساء فستان المناسبات لديها . . متذرعة لدى أمها بأن واحدة من صديقاتها فى المشغل سيكون الليلة عرسها ! !

وذهبت إلى موعدها تذرع مدخل الكوبرى بنظراتها . .

ورأت حبيبها . . لم يكن وحيدا . . بجواره وجدى صديقه الذى يأتى معه إلى المشغل أحيانا ويعاكس البنات بعربته الفاخرة .

وترك حمدى صاحبه وتقدم منها يأخذ يدها فى يديه . . بينما تحضنها عيناه . . قال لها إنه كان على ثقة من مجيئها . . وأنه يشعر بالسعادة لأنها جاءت . . ثم عرض عليها أن تختار إما جلسة بجوار النيل . . أو مشاهدة الفيلم الرائع الذى ستعرضه « سينما مترو » هو شخصيا يفضل السينما لأن الفيلم المعروض تحفة الموسم بلا جدال . وأجابته هى بأنها تفضل ما يختاره هو . . وأوصلهما وجدى بعربته . . ولم يدخل معهما ! !

ما أن بدأ العرض حتى تأهبت حواسها لسماع اعترافاته . . وألقى حمدى

بيده فوق كتفها وانطلق يوشوشها بكلمات متغزلة . . تكاد تكون جريئة . . وانقبض قلبها . . وهواجس خائفة تراودها . . كلماته لا تتحدث عن الحب . . تتحدث عن مفاتن جسدها . . وأزاحت يده بحركة حاولت أن تجعلها لا تشى بامتعاضها . . ثم أبعدت فمه عندما اقتربت من خدها أنفاسه الساخنة ! !

وتزايدت هواجسها . . حدثها بأن عشرات الفتيات يطاردنه . . ولكن ليست فيهن واحدة أسرت لبه سواها . . وأنه يشعر بأنها ستكون صديقته الدائمة . . ومن أجلها سوف يتخلى عن كل صديقاته ! ومن جديد أزاحت فمه عن خدها . . وخيبة أمل تنتشر فى قلبها . أهكذا بسرعة . ومن أول لقاء ! هناك فى حارتها يتعذب العاشق شهورا قبل أن ينال مجرد نظرة من حبيبته ! !

الخوف ينمو فى قلبها مختلطا بالمرارة . . والندم . . لقد تسرعت فى استجابتها المتهورة . . كان يجب أن تنتظر وتتريث حتى تسبر غوره . . وتتأكد من صدق عواطفه . ربما تكون استجابتها السريعة قد أشعرته بأنها من الممكن أن تكون مثل خليلاته . . رخيصة ! !

« كنت حلما أبحث عنه فى عيون كل البنات » تذكرت العبارة . . فأوجعت الكآبة قلبها . . مجرد واحدة يضيفها إلى عشيقاته . . هذا هو حلمه . . قاومت دموعها . . وظلت كل فترة العرض تتصدى لمحاولاته وتحبطها . . كان الارتباك وحده . . وخشيتها من أن تلفت انتباه الرواد هو الذى منعها من مغادرة السينما . . ما أن أضيئت الأنوار حتى شعرت كأن ثقلا انزاح عن صدرها !

انسلت بعيدا عنه وسط الزحام وخيبة الأمل تقيّد خطواتها المتثاقلة الحزينة . . وأمام مدخل السينما كان وجدى ينتظر بعربته . . واقترب منها حمدى

يهمس فى أذنها يرجوها أن تكون عاقلة . . ويعدها بسهرة ممتعة فى « عوامة » وجدى . . حيث النيل والقمر . . والأضواء الحالمة من بعيد . . وهدية فاخرة فى انتظارها ! ! وانجاب الشك نهائيا ! !

« ماذا يحسبنى هذا الرقيع . . أهذا هو الحب » وانسابت الكآبة فى روحها . . ونظرت إليه فى احتقار حزين . . وابتعدت خطواتها عنه . . وسارت لتركب « الأتوبيس » وفى أعماقها تمور الأحاسيس . وفى ذهنها تتلاحم الأفكار . . فكرت فى أمها المريضة والسعلات التى تنتزعها بالدم من صدرها . .

وفى إخوتها الصغار ووالدها الذى مات وهى صغيرة فى السنة الرابعة من دراستها الابتدائية . . كان يعدها بأن يعلمها . . ويصرف عليها حتى دم قلبه . حتى تتخرج دكتورة . . وفكرت فى نجوى بنت خالتها وصديقتها فى نفس الوقت . . ولا تدرى لماذا كان رجب المكوجى يقفز إلى حافة ذاكرتها من خلال أفكارها المتشابكة . . وكلما حاولت أن تنفلت بأفكارها بعيدا عنه . . وجدته برغمها يعود مسيطرا على تفكيرها . . « رجب . . ماله رجب يا سميحة . . لا تنقصه الوسامة . . ويكسب كثيرا . . وتتمناه أى بنت فى الحارة . . ثم هو يحبك ياسميحة . . يحبك . ويريدك زوجة . . شريكة لعمره . لا أنثى ليلة واحدة ! » .

همست بالكلمات لنفسها . . وهى تشعر بالحنين إليه يتفجر فى قلبها . . من أين انبثق له كل هذا الشوق فى قلبها مرة واحدة . . أيمكن أن يولد الحب فجأة . ولإنسان كنا نجفوه . .

من يدرى ربما كانت تحبه من قبل دون أن يعطى التفاهم لهذا الحب فرصته ليعبر عن وجوده . . ربما ! ! إنها تشعر الآن بأن حبها أشبه ببنبوع كانت تغطيه طبقات من التراب . . ما أن انزاحت حتى تدفقت المياه جارفة . . واقتربت من الحارة . . فوجدته هناك عالقة عيناه بمدخلها . . بالتأكيد ينتظر عودتها . . وتهللت أساريره عندما رآها . . وانطلق يردد موالا شجيا يشكو لواعج العشق ومرارة الصبر . ودنت منه وهى تتملى فيه متأنية . . وعلى فمها تولد ابتسامة متفاهمة وقبل أن تدلف إلى البيت ابتدرته فى حياء هامس :

. . « مساء الخير يا سى رجب ! » .

كتبت فى ديسمبر سنة ١٩٥٥ ونشرت بصحيفة « التعاون » فى أكتوبر سنة ١٩٦٥ .

للكتاكيت أجنحة

دخلت غرفة النوم . . وخلعت ملابس البيت . . ثم ارتدت فستان المناسبات الوحيد لديها . . ووقفت أمام المرآة تمشط شعرها استعدادا لاستقبال خطيب أختها وأسرته . . والضجة فى الصالة تنفذ إليها صاخبة . . تموج بالفرحة . . نساء وعذارى وأطفال . . وزغاريد تزعق بين كل لحظة والأخرى . كلما قدمت مدعوة جديدة . . والفتاة النحيفة ما زالت ترقص . . ويتلوى جسدها كالثعبان على نقرات الطبلة فى يد الجارة العجوز . . وهى تغنى بصوت مشروخ النبرات . . لأختها فى الصالة .

تمنت سعاد لو أن تظهر بفستان جديد . القديم لم يفقد زهوته . . ولكنه ضاق عند خصرها . . والجنيهات التى وفرتها لشراء فستان جديد . . أعطتها لرشاد ليبتاع بها مراجع جديدة . . ظهرت فى الهندسة الكيمائية .

ومن خلال الدوامة فى الصالة تناهت إليها زغرودة صاخبة .. اهتزت لها جدران البيت .. ثم جاوبتها زغاريد المدعوات .. هادرة .

عرفت سعاد صاحبة الزغرودة .. وابتسمت .. خالتها حميدة .. دائما تدخل بعاصفتها فى الأحزان .. وفى الأفراح ..

وتأكد اعتقادها عندما هدأت زوبعة الزغاريد التى أثارتها .. وتدافعت عبارات التهنئة من فمها لنهاد منفعلة باهتياج الفرحة ..

– « مبروك يانهاد .. ألف بركة ياحبيبة الكل .. ربنا يتمم بخير ياحلوة .. وعقبال كل البكارى .. » .

واندفعت تسحب الخطيبة من بين صويحباتها .. وتحتويها إلى صدرها وهى تغمرها بقبلات منهمرة .. ثم تطلق من جديد زغرودتها الصاخبة .. فترد عليها أفواه الجارات بالزغاريد متجاوبة .

وقبل أن تجلس بجوار جارة تحت طفلها لتفسح لها مكانا بجانبها ، انطلقت نظراتها تتجول فى أرجاء الشقة باحثة عن سعاد ..

« سعاد .. أين هى يابنات .. أين رجل البيت ؟ ..

وابتسمت سعاد داخل غرفتها .. ساخرة .. وقد شعرت بالكلمة تخدش قلبها .. وتتلاقى مع أحاسيس غريبة ظلت منذ الصباح تقاومها .. ربما للمرة الأولى فى حياتها تشعر بالمرارة لوقع الكلمة .. رجل البيت .. وانسابت الكآبة فى روحها .. انسابت تيارا هادئا من الأسى جرف كيانها ..

رجل البيت .. عادت تردد الكلمة .. وهى تجفف قطرات من الدموع طفرت برغمها .. ثم انبثقت من أعماقها خواطر تلومها .. وتستنكر هذا

الإحساس منها بالأسى والاكتئاب فى ليلة خطوبة أختها ..

وعاد نداء خالتها حميدة من الصالة يستعجلها .. وهى ما زالت أمام المرآة تعيد تصفيف شعرها .. لم ترق لها التسريحة الأولى .. تبدو فيها كفتيات الملاهى .

وضعت المشط وخرجت إلى الصالة وفوق ثغرها ابتسامة عريضة ... وانفجرت الزغاريد فى وجهها . وهى ترحب بالمدعوات .. وتقبل مجموعة من زميلات نهاد فى معهد المعلمات جئن أثناء وجودها فى الغرفة .. وتتمنى لهن العاقبة .. فتشرق الأحلام فى عيونهن والجارات من حولها يتبادلن التمنيات لبناتهن والشبان ..

كل واحدة تتمنى العاقبة للأخرى .. هى الوحيدة التى لم يقل لها أحد العاقبة لك .. ولا واحدة قالت لها الكلمة المعتادة .. ولا واحدة .

وعادت الكآبة توخز قلبها . هى .. شىء فرغ من أمره . عرف مصيره .. لا مستقبل له . لا عاقبة عنده .. والتفت بخالتها حميدة وهى خارجة من المطبخ وفتحت ذراعيها تحتضن المرأة البدينة الطيبة .. بقبلاتها . وتمنياتها ..

– « مبروك لنهاد .. وعقبالك يابنتى . ربنا يعوض صبرك .. ويرزقك ابن الحلال » .. ابن الحلال ؟ .. خالتها حميدة . هى الوحيدة التى تذكرت أنها أنثى .. من حقها أن تقال لها الكلمة ..

شعرت بالكلمة توجع قلبها .. نفذت داخل أغواره .. تثير لواعجه الكامنة ..

وتخلصت من أحضان خالتها ترد لها التمنيات ..

– « عقبال الشهادة الكبيرة لعروس يا خالة .. وحجتك أنت وعمى

رضوان » ونادت لأختها الوسطى فى المطبخ تستعجل الشربات ..

– نفسى يا سعاد يا بنتى .. أعيش لغاية ما أشوفه جنبك فى « الكوشة » وابتسمت سعاد ..

لم تستطع هذه المرة أن تمنع المرارة من أن تشوب ابتسامتها وتطل من عينيها .

– بعد ما شاب .. ياخالتى .. أنا قلت لك من زمان .. خلاص ياخالة .. أصبحت رجل البيت ولم يعد هناك ما يشغلنى غير هذا ..

رجل العائلة :

خالتها حميدة .. هى التى أطلقت عليها تلك التسمية .. ليلة زفاف وداد هنأتها بزواج أختها . وتمنت لها ابن الحلال .. وأجابتها سعاد بأنها تزوجت خلاص .. تزوجت وأصبحت رجل العائلة .. ومن وقتها وخالتها حميدة لا تناديها إلا وهى تداعبها بتلك العبارة .. رجل العائلة .. بدون أن تعرف أنها تدمى بها الجرح الكامن فى أعماق أنوثتها .. الجرح المتقيح فى الداخل لا يريد أن يلتئم أبدا .. وتحرص على أن تدارى عن العيون نزيفه ..

تركت خالتها عندما جاءت وداد بالشربات .. وأخذت تساعد أختها فى توزيع الأكواب على المدعوات . والأطفال .. ونظرت إلى ساعة يدها .. الثامنة والنصف .. الخطيب موعده التاسعة ..

وحانت منها التفاتة للعروس فى ثوبها الأنيق .. فاتنة .. وحلوة ... والسعادة تزغرد فى عينيها .. ومن حولها البنات .. زهرات شذية . يحطن بها ويداعبنها ، واحدة تقرص خدها ، وأخرى تهمس فى أذنيها . وأحلام فى كل عين . والابتسامة فوق كل ثغر . . كل واحدة فى قلبها الإحساس بأنها على موعد مع الغد . .

كانت خواطرها تتابع « زيطة » الفتيات .. عندما اصطدمت بها إحدى المدعوات عفوا .. وامتدت يد الرضيع فوق صدر السيدة « ينكش » شعرها . واقتربت من المرآة المقابلة لتعيد توضيبه .. والتقت نظراتها بالشعيرات الفضية بين خصلاته .. وغامت أساريرها ..

لم تكن تلك الشعيرات مفاجأة لها .. رأتهن من قبل .. وأحصتهن بالواحدة فما الذى جعلها ترتجف هكذا .. فى ليلة أختها .. ماذا جرى لك يا سعاد .. أية أحاسيس غريبة ومجنونة تراودك اليوم يا فتاة .. أفيقى لنفسك .. لم تعودى مراهقة ..

نظمت شعرها واستدارت ترحب بجارة وافدة مع بناتها .. والتقت عينها بعين أختها .. كانت العروس تتابعها .. وفطنت هى للاكتئاب الذى يشوب نظرة نهاد .. فى ليلة خطوبتها ..

وابتسمت لها .. « معذرة يا صغيرتى .. لا شىء .. لا تكتئبى هكذا يا عصفورة فى ليلة أحلامك .. كونى سعيدة يا حلوة .. فى منتهى السعادة أنا .. سيكون لك بيت يحتويك .. ورجل يحميك .. والحياة أمامك .. فى منتهى السعادة أنا .. فلهذا اليوم كنت أعيش .. سعيدة .. لأننى ادخرت عمرى حتى لا تدوس أقدام الزمن حيواتكم .. ونجحت .. » .

وأنا .. أنا سعيدة وكادت الدموع تنبثق من عينها . ولكنها قاومتها .

وأفاقت من خواطرها .. ومناجاة أختها على الزغاريد تنطلق عاصفة .. واستدارت فوجدت الخطيب خلفها وأسرته .. الأم .. وبنتها الطالبة .. وماجد الصغير .. آخر العنقود .. ونهضت صابحة صديقة نهاد لتعطى مكانها للعريس

بجوار عروسه .. وانطلقت الزغاريد من جديد .. ثم اشتد حماسها ودويها عندما دخل رشاد .. « الباشمهندس » .. رددتها أفواه الأمهات .. ثم انهالت عليه التمنيات بالشهادة .. والعروس .. وترقرقت الأحلام نشوانة فى عيون البنات . وهن يخالسنه نظرات معجبة بوسامته .. فطنت إليها سعاد ..

« كل واحدة لها أحلامها إلا أنت يا سعاد .. « الباشمهندس » .. كل عذراء هنا تتمناه .. أعطيته دم قلبك لتقدميه فى النهاية لواحدة أخرى .. تأخذه منك » . إنها تعرف ذلك مقدما .. تعرف أنها مجرد صانعة أفراح .. وليست لها أفراح تخصها ..

وقدم العريس « الشبكة » وألبس الخطيبة « دبلتها » .. وانطلقت الزغاريد .

ونظرت إلى الدبلة فى أصبع أختها .. ذات يوم .. كانت فى أصبعها هى الأخرى دبلة .. كان لها خطيب .. وارتفعت نظرتها إلى عين نهاد .. أختها سعيدة بدبلتها . فى أفراح عينيها الإحساس بأنها دخلت الدنيا .. « كونى سعيدة يا عصفورة .. دبلتك كأنما فى أصبعى أنا » ..

ومن خلال الضجة والزحام والزغاريد ، تدافعت الذكريات إلى مخيلتها ..

كانت صغيرة .. لها أحلام مراهقة تحلق فى أجواء فسيحة .. طالبة فى « مدرسة السنية » .. فى كل مكان تحاصرها نظرات الإعجاب .. وتنهدات الشبان .. فى الأتوبيس .. فى الشوارع .. فى الحارة .. فى كل مكان تلاحقها النظرات المفتونة بجمالها ورشاقتها .. ورغم أن عبارات الغزل كانت تدغدغ بالفرحة روحها .. ظلت تدخر عواطفها .. وتغرقها فى المذاكرة .. حتى تتخرج من الجامعة ، وتلتقى برجل أحلامها .. وفى يدها شهادة تحفظ عليها كرامتها ..

وتساعد بها زوجها فى معركة الحياة .. ليكون بيتها سعيدا .. وتجنبه الحياة المكدودة التى يعيشها والدها فى كفاحه المرير من أجل أن يقيم أود عائلته .. ويدفع لها مصاريف المدرسة . أغلقت قلبها دون أى نداء . . ولم تعطى شابا حتى ابتسامة ارتياح لعباراته . .

وفى شارعها كانت طلبة الثانوى يدعونها بالمتكبرة . والمغرورة .. والذين يطالعون الروايات منهم .. أسموها « المعقدة » .. وكانت تبتسم ساخرة فى سرها .

وابتسمت الدنيا فى وجهها .. عندما نالت شهادة التوجيهى بمجموع يتيح لها المجانية فى الجامعة .. ولكنها كانت قد اتخذت قرارها .. سوف تشتغل بشهادتها وتنتسب لكلية الآداب فى نفس الوقت .. لتوفر على والدها الطبيب نفقاتها الخاصة .. ومن جهة أخرى لترد له بعض الدين .

وحاول الرجل الطيب أن يقف فى وجه قرارها .. وعدها بأن يحول قطرات دمه إلى نقود تفى باحتياجاتها .. ولكنها كانت قد ركبت رأسها .. فرضخ الرجل مرغما لعنادها .. وتوظفت بقسم الخامات فى « شركة البلاستيك الأهلية » .. وخطبها أحد المهندسين الجدد .. اجتذبته أخلاقها واستقامتها كما قال لها .. وماتعت فى البداية .. ثم قبلت عندما وعد بأن ينتظرها إلى أن تستكمل تعليمها العالى .. ووضع الدبلة فى أصبعها ..

وأفاقت من خواطرها على صوت أم الخطيب .. تسحبها من يدها .. ثم تطوف معها بالمدعوين تستعرض « الشبكة » التى انتقاها ذوق العريس ..

كانت لها أيضا هى « شبكة » .. أعادتها لصاحبها .. مات والدها بالذبحة الصدرية .. مات الرجل الطيب المريض .. الذى ينوء كاهله بمطالب أسرته ..

ورغم مرضه وشيخوخته .. كان يعود من عمله النهارى فى مصلحة المساحة ليشتغل قاطع تذاكر فى فترة المساء « بسينما الشرابية » . ليجلب أجرا إضافياً يغطى به نفقات البيت .. لم تره يشكو أبدا .. كان يحتمل تعاسة واقعه بلا مرارة .. وخرج الرجل الطيب من الدنيا بدون مسرات لها فيها .. ثم لحقت به زوجته بعد ذلك بشهور .. ووجدت سعاد نفسها رجل العائلة .. كان هذا نصيبها .. وسارت بالسفينة بين الأعاصير وحدها .

وأعادت الشبكة لصاحبها .. مع الدبلة ..

تمنت وقتها بلهفة جائعة .. أن يكون الرجل شهما .. ليقول لها « كونى لى ولإخوتك فى نفس الوقت وليكن مرتبك من أجلهما .. لم تكن ستقبل تضحيته مهما حاول .. ولكنها تمنت فى أن يقول لها ذلك فحسب .. لتشعر أن الدنيا بخير .. وأن فيها من يبدى استعداده للتضحية .. كانت سترفض عرضه قطعا .. فقط تمنت الكلمات .. لتعيش عليها .. لتواجه المصير بها .. ولكنه لم يقلها . أبدى أسفه .. قال إنه كان يتمناها زوجة .. ولكنه يريد سيدة بيت تتفرغ له ولأولادها .. وظروفها هى ترغمها على العمل من أجل إخوتها ..

نسى الرجل أنه اتفق معها من قبل على أن تظل فى العمل بعد الزواج لتضيف مرتبها إلى مرتبه ليمكنهما توفير حياة طيبة لأولادهما . . نسى ذلك . . أنها لا تحقد عليه . . لا تلومه . . ولكنها كانت تتمنى الكلمات . .

وماتت أحلامها فى الجامعة . . انقطعت عن مواصلة الانتساب لم يعد لديها وقت للمذاكرة . . ونسخ المحاضرات . . كانت تعود من الشغل لتنكب على احتياجات إخوتها . المطبخ . والغسيل . والمشاجرات . ومشاكل الطفولة . .

أصبحت الأب . . والأم . . والمربية وأخيراً . . ها هى الآن عانس فى الخامسة والثلاثين . . وحيدة . . بلا أفراح تخصها . .

وانفض حفل الخطوبة .. استأذن العريس وعائلته .. وانصرف بعده بقية المدعوين .. ثم خالتها حميدة .. ووداد مع زوجها .. وارتدى رشاد منامته وذهب إلى فراشه .. ونضت سعاد ثوبها وساعدت نهاد فى خلع فستان الخطوبة .. وقبلتها ثم أطفأت النور .. وتمددت على السرير بجوارها .. وعادت الخواطر تجرف كيانها .. وسرعان ما وجدت نهاد بجوارها قد غرقت تماما فى نومها .. وامتدت يدها ثم أمسكت يد أختها تتحسس الدبلة فى أصبعها .. ولثمتها .. ثم أسدلت « اللحاف » على وجه الصغيرة وانسابت مع ذكرياتها ..

والدها العجوز .. المشروخ الصدر .. كم كان يعبدها .. ونزهاتها معه وهى طفلة على شاطئ النيل .. وفى حديقة الحيوان .« وحواديته » لها عند سفح الهرم .. وشقاوتها وهى تجرى هناك .. وتقذف أنف أبى الهول بالحصى والرمال .. أطبق على قلبها الانقباض .. مات الرجل الحنون الطيب والأسى يترع قلبه .. مات ونظرة الأسى فى عينيه .. لأنه ترك للدنيا «كتاكيت بلا أجنحة » .. وانبرت لها من بين الذكريات المتداعية صورة أمها .. بوجهها الباش .. وطرحتها البيضاء .. وتوهمتها تدنو من فراشها فى الظلام .. ومدت يدها بحركة تلقائية .. ولكنها قبضت على الفراغ .. ووجدت نفسها تهمس لها .. « قولى لأبى يا ماما سعاد قامت بالمهمة .. لكتاكيته الآن أجنحة .. عام واحد يا أمى ويغدو رشاد مهندسا .. ووداد يا أمى زوجة هانئة .. أم ثلاثة أطفال كالملائكة .. ونهاد فى أصبعها دبلة .. وشهادة من معهد المعلمات ..

وانخرطت تبكى .. كل هذا صنعته هى .. على حساب شبابها .. قاومت أنوثتها .. واختلاجات الربيع فى قلبها .. كل فتاة مثلها .. كانت تحلم بقبلات حبيب .. بأحضان رجل .. بمناغاة طفل تنسجه من أحشائها .. إلا هى مضت وعلى كاهلها التبعة .. وهى تحاول أن تبدو جامدة كالصخر .. متجهمة دائما كالراهبات .. حتى لا تعطى الفرصة لإنسان كى يتمناها ..

منذ عشر سنوات تماما .. كان أحد طلبة الجامعة يقطن فى مواجهة نافذتها .. دائما كان يعاكسها .. ينتظرها عند محطة « الأتوبيس » فى الصباح وهى ذاهبة إلى عملها .. ويترقبها وهى عائدة .. ليبثها عبارات الوله .. والغرام .. ويناشدها أن تستجيب لعاطفته .. وترحم سهاده .. كان يقول لها همسا بأنه لا يستطيع الحياة بدونها .. وأنه على استعداد لأن يقدم لها أى تضحية تطلبها تأكيدا لحبه .. ولكنها دائما تمضى بدون أن تلتفت إليه .. كأنما كلماته لإنسانة غير موجودة ..

وكانت تتعذب .. كلماته المترعة عذوبة وحنانا .. وشعرا .. كم أذابت قلبها .. بدون أن تعطى قسمات وجهها أى تعبير يشى بنشوة روحها لكلماته . وفرحة قلبها برؤياه .

وذات صباح اقترب منها .. ثم اندفعت كلماته .. حانقة .. ثائرة .. يائسة

« أنت .. إنسانة بلا قلب .. بلا عاطفة .. أنا حزين لأننى أحببتك . لم أكن أعتقد أن توجد فتاة متعجرفة .. ومتكبرة .. ومعقدة إلى هذا المدى . حزين .. أنا . من أجلك أيضا » قال كلماته بسرعة لاهثة .. ومضى ..

متكبرة هى .. ومعقدة ..

تمنت لحظتها لو كانت تستطيع أن تجرى خلفه .. لتقول له أن كلماته أجمل شيء فى حياتها .. وأنها الشعاع الوحيد الذى يضيء بين ظلمات واقعها .. ولكنها لا تستطيع .. لا تستطيع لا لأنها متكبرة ومعقدة .. بل لأنها غير البنات .. لأنها رجل عائلة .. وأنه غريب فى الحارة ولا يعرف ظروفها ..

وكف بعد ذلك عن التصدى لها .. ثم عاد إلى بلدته فى الإجازة الصيفية .. ولم تعد تراه بعد ذلك فى الحارة .. اختفى من حياتها .. إنها الآن مستعدة أن تدفع بقية عمرها فى سبيل أن تراه مرة واحدة . . أن تراه من بعيد . . ربما يكون الآن فى مكان ما من هذا العالم فى أحضان زوجة طيبة . . تسكب أنوثتها وحنانها دفئاً لشبابه . . أما هى فعانس فى الخامسة والثلاثين . . وحيدة مع وسادتها . . وحيدة . . والشعر الأبيض يقتحم رأسها . . وحيدة فى النهاية . . وربما ينسون تضحية العانس العجوز . . وازدادت دموعها انهماراً وهى تتخيل شيخوختها . . وحيدة . . بلا شيء يدفئ حياتها ويعطى الطعم لأيامها . بدون كتاكيت تصنع لها أجنحة .

اعتدلت نهاد وهى نائمة على جنبها الأيسر وأعطتها ظهرها . . لأول مرة تنام الصغيرة وصدرها ليس فى أحضان أختها . . اكتفت الليلة بأحضان عريسها . . فى الأحلام . .

« نامى يا حلوة .. هانئة » ووجدت نفسها تبحث عن يد أختها .. ثم تتحسس الدبلة فى أصبعها . وقد أشرقت من ظلام خواطرها رؤيا أشعت تثلج

قلبها .. ثم انسابت وانتشرت تضيء كل أحاسيسها .. فتركت يد أختها وأسدلت الغطاء على وجهها . وأغمضت عينيها على منظر خالتها حميدة .. تندفع إلى الصالة بعاصفتها .. ثم تنطلق فى أرجاء البيت زغاريدها ! !

كتبت فى يناير سنة ١٩٦٠ ونشرت بمجلة «القصة» فى أغسطس سنة ١٩٦٥ .

لحظة فرح

وقتها كنت أجلس وحيدا .. مهموما .. تنتهبنى كآبة صامتة .. فى غرفتى المقبضة ، الهرمة .. ومن حولى تتناثر فى فوضى أوراق الصحف و « الكليشهات » المغبرة فوق المقاعد والرفوف .. وعبثا أحاول تركيز أفكارى لإعداد وصياغة المواد الصحفية التى تركها رئيس التحرير فوق مكتبى مع قصاصة تحذير من تأخير إنجازها مكتوبة بلباقة تجيدها خبرة رئيس التحرير وتمكنه من تحقيق رغباته مهما كانت عسيرة ! .. أعرف يا سيدى الرئيس .. أعرف .. الوقت أزف والمطبعة فى الانتظار .. وصاحب المجلة لا يقبل الأعذار .. أعرف .. فقط اعفنى من عبارتك الضخمة التى تتحدث عن احتراق أصحاب الكلمة .. اعفنى منها .. صدورها منك أنت بالذات يحرق أعصابى أنا ! عبثا أحاول الكتابة .. دوامة المشكلة تشل أية محاولة لذهنى فى

الانعتاق بعيدا عنها .. تبلد ذهنى تماما .. الكلمات تهرب منى .. لم تعد مطواعة ! !

بالأمس فاجأنى أخى بخبر نقله من القاهرة ، ناظراً لمدرسة إعدادية بمدينة نائية فى الصعيد . هذا النقل بالنسبة لى ليس أقل من كونه كارثة ! .. وجود أخى هنا هو الضمان الوحيد لعدم ضياعى .. وجوده ينهى الكثير من أزماتى . الآن .. كيف أستطيع تدبير احتياجاتى فى مدينة مسعورة .. كالبغى لا تتعامل أبدا بقلبها .. كيف تكفينى الجنيهات التى أتقاضاها شهريا من صاحب المجلة لتغطية نفقاتى . من طعام . ولباس . وكتب وسكن ودخان ؟ !

بالتأكيد سيرفض صاحب المجلة أن يزيد راتبى مليما واحدا .. هذه مسألة فرغت من أمرها . كانت مثار نقاش بينى وبينه طويلا .. آخر مرة قالها لى بصراحة .. أنه يفكر جديا فى إيقاف إصدار المجلة حتى يرتاح من وجع القلب . وجع القلب ! ! ربما يكون صادقا فى تهديده .. ولا أملك سوى أن أصمت لائما نفسى لأننى لم أنفذ نصيحة مدرس اللغة العربية الذى حذرنى عندما كنت صغيرا تستهويه موضوعاتى الإنشائية من أن تدركنى « حرفة الأدب » . !

إنهم يعتصروننى .. كل الأعباء ملقاة على عاتقى .. إعداد المواد . وإعادة صياغة ما يبعث لنا به الهواة من أدباء الأقاليم . وكتابة موضوعات بواسطتها ترد (الشيكات) لصاحب المجلة من آلهة الشركات وأباطرة الأعمال ! ! وأخرى يقترحها رئيس التحرير فى صيغة أمر لشئون تهمه فيذيلها بإمضائه ، بدون أن ينسى أن ينوه بأن مشغوليته فحسب هى التى عاقته عن كتابتها بنفسه

مشغوليته . . نعم فلديه عمله فى صحيفة يومية كبرى . . وأغلب وقته ينفقه فى حفلات السفارات ! !

وأمسكت بقلمى من جديد عندما وقع بصرى على قصاصة التحذير. ولكنى أبدا لم أستطع أن أقسر نفسى على الكتابة . فالضجة الملتاثة الوافدة من الشارع تحتى تتشابك مع دوامة قلقى ومخاوف فترين البلادة فوق ذهنى !

وضعت القلم وأسندت ذقنى فوق قبضتى .. وبلا إرادة أخذت نظراتى تتجول فى محتويات الغرفة . الصراصير التى تتسكع فوق الجدران .. والعناكب التى تنسج خيوطها فوق الرفوف والمقاعد العتيقة بجلدها المتفتق الذى انبثقت أحشاؤه . والكتب التى اصفر لونها وحط عليها التراب فوق الدواليب التى سابت مفاصلها . والدوسيهات المبعثرة هنا وهناك . كل هذه كانت أشياء مألوفة لدى . ولكنها أبدا لم تكن تنفث فى نفسى كل هذا الإحساس بالقرف والكآبة والانقباض .. أكثر من مرة طلبت منهم طلاء الجدران . وأبدا لم ينفذ طلبى . من مصلحتهم أن تظل هكذا كئيبة . لإيهام زوارها بأنها مجلة فقيرة مكافحة . وإبعاد عيون الآخرين عن إيرادات مندوبها المتجول على مدار العام فى بلاد تفجر النفط أرضها !

الانقباض يحثم فوق صدرى . بينما أفكارى المكروبة تلهث فى ركضها المتوتر المحموم . ومن خلال هذا أترصد الخطوات التى تدق الممر الخشبى فى الصالة خارج الغرفة وأنا أتمنى بلهفة جائعة أن تكون الخطوات القادمة من أجلى . فالوحدة مع كآبة الغرفة بجانب حالتى النفسية .. كل هذا يدك أعصابى .. وأريد إنسانا أى إنسان ينقذنى الحديث معه من عذابى . أين أنت يا صديقى الشاعر

تسقينى واحدة من قصائدك التى تبشر بالفجر عسانى أسترد روحى . ولكن الخطوات تعرج إلى استراحة طبيب الأسنان فى الشقة ذاتها .. لا أحد يريدنى ! !

ماذا أفعل الآن فى مدينة مات قلبها .. عشرة جنيهات كيف أواجه الحياة بها .. هل أعود من جديد إلى مدينتى الصغيرة عالة على أبى المزارع البسيط .. وأواجه نظرات الشماتة فى عيون أعمامى .. وعجائز العائلة .. عاد الولد الفاشل .. كاتب المواويل ! !

ودق جرس (التليفون) وتناولت السماعة أكاد أحتضنها . لا شىء . واحدة من شاعرات زماننا تسأل عن مصير قصيدتها .. قصيدتها التى أنا أعرف جيدا من هو كاتبها ! .. كان صوتها يتكلف الأنوثة تتنهد عبر الأسلاك فى نعومة مبتذلة .. جاوبتها والإحساس بالقرف يتفاقم فى أعماقى ثم وضعت السماعة .

وبلا توقع حدثت المعجزة .. امتدت يد بيضاء صغيرة تحرك مقبض الباب فى شقاوة . ثم أطلّ بوجهه المتورد . . وشعره الأصفر . طفل صغير وسيم . ذو نظرات ملتمعة يومئ بريقها الحاد إلى رغبة فى المشاكسة . . ولبث يحدق بنظراته المندهشة وكأننى (بلياتشو) ثم تحول يتفقد بنظراته الطائرة محتويات الغرفة وصور مشاهير الكتاب المعلقة فوق الحيطان . ومن جديد نظر إلى فى استغراب كأنما قد اكتشف فى أحد أبطال الخواديت الخرافية التى تسردها عليه الأم قبل أن ينام ! !

ابتسمت له . ثم أومأت إليه بنظرات ضارعة مستجدية أن يدخل . ولبث ثوان يشاور نفسه ولست أدرى لماذا كان الخوف يراودنى خشية أن يرفض !

وفى حذر وخطوات مترددة دلف إلى الداخل حتى دنا منى وأخذ يحدق فى متسائلا بما يؤكد أن اللهفة البادية فى نظراتى قد أثارت فضوله .. بلا كلمة امتدت يدى تداعب خصلات شعره .. ويدى الثانية تربت خده .. مسألة فى منتهى الصعوبة أن تجد كلمات تتفاهم بهامع طفل وفى نفس الوقت تعبر تماما عن إحساسنا ! لم أستطع مقاومة رغبتى الساذجة فألصقت فمى بوجنته .. ونظر إلى .. عيناه تقولان لى .. أمن أجل هذا دعوتنى ؟ !

فتحت درج مكتبى وأخرجت بعض المجلات المصورة وقدمتها إليه .. فأخذ يقلب صفحاتها بسآمة ثم مط شفتيه وألقاها أمامى .. كانت بالنسبة لى مسألة هامة أن أرضيه . أن أرى البهجة فى عينيه .. فأخرجت بعض الصور الملونة للممثلات . ولكنه أيضا هز كتفيه . وامتدت يده تعبث بالساعة الصغيرة القديمة التى فى رسغى . لو طلبها ما ترددت فى أن أعطيها له . لو عرفت حتى أنه سينثر أشلاءها فوق البلاط أمامى .. ولكنه ترك يدى وجرى إلى الشرفة عندما تناهت إلينا من الشارع ضجة معركة . ثم عاد من جديد وأخذ (ينبش) محتويات سلة المهملات بجانبى .. وتعلقت نظراته الماكرة بقشور التفاح الأمريكانى فى قاعها .. ورفع نظراته نحوى .. كانت مفعمة بالاتهام ! !

صغيرى اللذيذ .. معذرة .. تذكرت . هنا فى درج مكتبى تفاحتين نسيتهما بالأمس بقايا وليمة أقامها لنا أديب من قطر شقيق نشرنا عن آخر دواوينه دراسة تقرظه ! ! خذ يا عصفورى .. وقدمت له واحدة منها .. أخذها بلهفة .. وبحركة سريعة كأنما يخشى أن أندم .. وأستردها ! وبدون ما كلمة تركنى وجرى

إلى الصالة مرحا يتفوه بكلمات لم أفهمها ! ..

بخروجه عادت الأزمة تجرفنى من جديد .. وقصاصة التحذير ما زال
أمامى .. ألا يستطيع أخى أن يجد وسيلة يلغى بها نقله . إنه على صلة وطي
بأحد أصحاب النفوذ فى الوزارة . ويمكنه بسهولة أن يخدمه . ولكن .
أدرانى .. ربما يكون أخى هو الذى سعى لهذا النقل من تلقاء نفسه .. ربما
ليتخلص من أعباء إقامتى معه ؟ .. ربما .. من أدرانى ؟ !

فوجئت بهذا الاحتمال يسيطر على تفكيرى .. ويزيد الأزمة قتامة
نظرى .. هل يمكن أن يتخلى عنى أخى بإرادته ؟ وفوجئت بالصغير يعود
جديد .. لم يكن وحيدا .. كان يسحب طفلة صغيرة من يدها وهى تتعث
خطواتها وتكاد تقع على وجهها وهو يجذبها بشدة لا تناسب احتمالها .. حتى
عندى .. نظر إليها أولا . ثم عاد نظرته إلى الدرج الذى أخرجت منه التفاح
ثم طفق يتأملنى بدون أن يقول كلمة ! .. ابتسمت له أقول :

– « أهى .. هذه القطة أختك ؟ »

وأجابنى وهو يداعب التفاحة فى يده :

– « نونو .. ماما ! »

حملتها بين ذراعى وأدنيتها من فمى أقبل شعرها وعينيها .. وديعة ..
نقيض شقاوته تماما .. وهى تنظر إلى فى بلاهة وتوشك أن تهم بالبكا
ولم يستطع هو الانتظار .. فسحب الدرج بنفسه وأخرج لها التفاحة الي
ووضعها فى كفها .. فأخذت تنقر عليها بأصابعها النحيلة ، النظيفة .. ثم ر

إلى الأرض وهى تبتسم .. وعندما هم الصغير بالتقاطها .. أزاحته فى مرح وتناولتها .. ثم جريا معا وهما يضحكان ..

وقبل أن يصلا إلى الباب كانت أمها قد خرجت من عند طبيب الأسنان تنادى عليهما .. ثم أطلت داخل غرفتى تبحث عنهما .

– « يا لكما من شيطانين صغيرين .. معذرة يا أستاذ .. عفاريت .. هم أطفالى ! »

قالت هذا وهى تبتسم . . ابتسامتها العذبة تؤكد أنها تفاخر بشقاوتهما . . لا أن تندد بها !.. من لهجتها عرفت أنها يونانية . . طالت هنا إقامتها . .

وعندما فوجئت بما فى أيديهما اكتسى وجهها الوسيم بالغضب .. وغاصت العذوبة فى عينيها وهى تنظر إليهما فى تأنيب .. وتنفوه بكلمات غاضبة .. لا أعرف لأى لغة تنتمى !

ثم انتزعت من يد كل منهما التفاحة التى تحملها .. وفى صمت وضعتها فوق مكتبى !

كانت مفاجأة قتلت المسرة الوافدة التى كان يفيض بها قلبى .. وأحسست بمشاعرى تنزف إذلالا .. وأنا أقف مرتبكا .. أحاول أن أجد كلمات أقولها :

– « سيدتى .. بحياتك .. سيدتى .. إنها بالنسبة لى مسألة سعادة ! »

وتناثرت من فمى بقية الكلمات لاهثة . متعثرة لا أعرف بالتحديد ما هى :

– « متشكرة جدا .. يا أستاذ .. متأسفة .. بالنسبة لى أيضا مسألة تربية ! »

قالت كلماتها وهى تضع حقيبة يدها تحت إبطها .. ثم جرت ولديها عنوة .. كل منهما فى يد .. الطفل يرفس فى مقاومة مقهورة .. بينما استكانت الصغيرة

وهى تحملق فى .. وفى أمها الغاضبة .. ونظراتها الجاحظة تتساءل عن تفسير لكل هذا ! ! وأحنيت رأسى فوق المكتب فى مواجهة قصاصة التحذير .

.. بينما تناهت إلى خطواتهم تعبر الصالة .. !

كتبت فى فبراير سنة ١٩٦١ ونشرت فى صحيفة «المساء» فى نوفمبر سنة ١٩٦٣ .

الوطن

انتهى الشيخ عبد الباسط من آذان الفجر ودبت أقدام الرجال فى دروب القرية الضيقة ، مختلطا سعالهم بنهيق الحمير. وخوار الثيران المسوقة إلى الحقول .. وما زال « متولى أبو حسين » كما هو منذ العشاء ، ساهرا أرقا . تحترق لفائف الدخان بين أنامله واحدة بعد الأخرى .. بينما تأكل المشاعر المهمومة أعصابه ! !

وعن قرب منه امرأته عائشة غارقة فى نومها .. تحتضن « عليوه » إلى صدرها ..

وعندما زعق « عباس الحلوانى » ينادى « الأنفار » للشغل . نهضت عائشة وسنانة تفرك عينيها براحة يدها . وعلى ضوء مصباح الغاز لمحت متولى قابعا فى ركنه فأدركت أنه قضى ليلته ساهرا كما قضاها بالأمس .. فتنهدت وهى تسدل

الغطاء على جسم ابنها .. ثم عادت تنظر إلى زوجها تقول بعد أن قاومت ترددها :

– « متولى .. يا ابن الناس .. قل لى ما الذى يحيرك . يومان وأنت على تلك الحال .. لا ترى النوم أجفانك .. قسط الأرض لم يحل موعده . و « الكيلاوى » أخذناه من الجمعية ! ! »

كانت كأنها توجه كلماتها إلى إنسان لا وجود له .. فمتولى لم يرد بكلمة تزيل المخاوف التى تختمر فى صدرها .. ظلت تنظر نحوه فى صمت متلهف بدون أن تعاود السؤال من جديد .. فهى تعرف رجلها جيدا .. متولى من نوع لا يفضى بهمومه حتى ولو لأقرب الناس إلى قلبه .. تعود أن يستبقى كروبه لنفسه .. منذ يومين وهو على تلك الحال توجه إليه الأسئلة فلا يجيب عليها بغير صمته الواجم المكدود .. عصر الأمس نهرها وأغلظ لها القول على غير عادته .. عندما استحلفته بولده وتربة والده أن يكف عن صمته ليشاركها فيما يشغل باله !

وجرفتها حيرة متناهية .. ما الذى يجعله مكروبا إلى هذا الحد .. عازفا عن السهر فى « منادر » أصحابه « وقهوة علام أبو عوف » غربى الجسر ليتابع « الشاعر » وهو يسرد عليهم بمصاحبة « الربابة » ملحمة « الهلالى » وصراعه مع « الزناتى » !

لكم يعذبها الخوف من أن يكون لوجومه هذا صلة بالشائعات التى تهامست بها بعض نسوة القرية فى الأسابيع الأخيرة .. من أن زوجها يعرج كثيرا على بيت « قاسم أبو سليمان » ليتبادل الحديث مع ابنته « زهيرة » الحلوة .. أرملة « معتوق » عامل التليفون . ووارثة الفدان وربع ! !

لقد استخفت بهذه الشائعات فى حينها .. معتقدة أنها من اختراع « وسيلة » داية القرية بدافع من حقدها لأن متولى لم يتزوج من ابنتها العانس التى كانت تنصب الشباك لتزوجها من متولى مغرية إياه بالثلاثة أفدنة التى ورثتها عن أبيها والجاموسة . . لم تصدق هذه الشائعات . . فهى تثق من حب متولى لها . . وليس هو بالرجل المتقلب الطائش حتى تزوغ عينه ويضحى بها هى . . أم ولده . . ليتزوج من زهيرة . . أو غيرها ! !

نهضت تجهز الإفطار . وما زال الصمت يخيم على المكان . . متولى قد استغرق تماما فى انطوائه . وعائشة تخالسه بين اللحظة والأخرى النظرات الحائرة . . آملة أن يقلع عن صمته ويكلمها . . وعندما وضعت إناء الطعام أمامه . . ألقى بعقب اللفافة وتكلم أخيرا . .

– « يعنى الشيخ عبد الباسط . حضرة جنابه . . ضاقت الدنيا به فلم يجد غيرى فرصة يستعرض بها وطنيته » .

قالها وعاد إلى الصمت وعائشة تنظر إليه ملهوفة ليواصل حديثه . .

– « خيرا يا متولى . . ما الذى حصل ؟ ! »

– « حضرته . . كلما رآنى أدخل « الزاوية » لأخطف لى ركعتين . . انطلق يخطب . . ويعايرنى لأننى لم أكتب اسمى فى دفاتر المتطوعين . . بالأمس بعد صلاة الجمعة جعلنى أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعنى بعد الصلاة مباشرة اندفع يتحدث عن الإنجليز . قناة السويس . . والأرض الجديدة التى أعطتها الحكومة لمن لا يستحقونها . . لأنهم جبناء . . قال هذا وهو يشير نحوى بأصبعه فأحاطتنى نظرات العداوة والشك من المصلين . . يعنى خلاص متولى أصبح عنتر

زمانه . . كأنه الموعود لوحده بإخراج الإنجليز من البر . . لو كانوا ينوون العودة كما يقول « صوت العرب » . ويعنى الشيخ عبد الباسط . . خلاص الوطنية حارقاه .

شعرت عائشة بالارتياح يغمر قلبها . . فهموم متولى لا صلة لها بالشائعات التى تروجها وسيلة عن غرامه بزهيرة .

– متولى . . أهذا ما يجعلك تحمل هموم الدنيا فوق رأسك . أنت تعرف الشيخ عبد الباسط والاضطهادات التى لحقت به من حكومات زمان . لأنه كان يحرض الناس على مقاومتها ويتهمها بأنها من صنع الإنجليز . وهنا من رفع رأسه فى وجه « شاهين باشا » وعائلته الباغية سواه . . فكيف تنتظر منه أن يسكت عندما يراك أنت ابن عمه . . تمتنع عن التطوع لقتال الأعداء ! ! »

ما إن قالت كلماتها فى غمار لهفتها . . وإحساسها بأن المسألة بسيطة لا تستدعى هذا الهم كله . . حتى فطنت بأن إجابتها كانت تفتقد الذوق . وأنها فى نفس الوقت تتضمن لومه فعادت تقول :

– الطعام برد يامتولى . . كل . . ولا تحمل هما لمسألة هينة . . كل يا رجل . . أنت حر . . كل واحد حر فى نفسه . . الشيخ عبد الباسط أو غيره . . ليس ولى أمرك . . لكن إن كنت عاوز رأيى . . لابد أن تفعل مثل الجميع لتسد حلق من يعايرك . . وأنت لماذا تحمل الهم . . من يدرى . . ربما لا تحدث حربٌ بالمرة ! ! لم يكن متولى ينتظر منها تلك الإجابة . . كان يتوقع ردا يوافق على تصرفه فقال معاتبا :

– عائشة . . أبعد ما قضيت أغلب عمرى . ضائعا أجيرا . . يوما أشتغل فى

دائرة شاهين باشا بما لا يكاد يسد رمقى . وأغلب أيامى متعطلا بلا عمل . والآن بعد ما تغيرت الظروف . وعدلها الله . وجاءتنا حكومة وزعت الأرض علينا . وبدأنا نعيش مثل خلق الله . تريدون منى أن أحارب . وأموت ! وأشعل لفافة من النفاية التى تلفظ أنفاسها فى فمه وأردف :

– « أموت . . قبل أن أتمتع بالأرض التى تمتص دمى . . قبل أن أربى « عليوه » وأعلمه وأشعر بأنه أصبح لى من ظهرى رجلا . . ما الذى أطفحنى الدم منذ صغرى . . أليس لأن الإنجليز أخذوا أبى إلى الحرب معهم . . وقتلوه . . ولا أعرف حتى مقبرته لأقرأ الفاتحة على روحه أمامها . مثل أموات الناس . . أتريدين أن يحدث هذا لعليوه ؟ ! »

ما أن قال هذا حتى غمس نظراته فى عينيها يلتمس تأثير كلماته . .

أرتجف قلبها لحديثه عن الموت . . ويتم عليوه . . ولكنها تذكرت ليلة الأمس عندما ذهبت إلى « الطلمبة » لتملأ جرتها . . حيث قابلت هناك « خديجة » زوجة « مهران حلاق الصحة » مع بعض جاراتها . . وانبرت خديجة تتحدث بفخر عن زوجها الذى يتدرب على السلاح فى البندر استعدادا لمحاربة الإنجليز . . إذن فقد كانت خديجة تعنيها هى عندما قالت بأن الذى يجبن عن قتال الأعداء يستحق قطع رقبته . . لا . . متولى كان رجلا دائما . . ولابد أن يظل على الدوام رجلا ! !

– « سلامتك يا متولى . . من قال لك اذهب لتموت لكن من العار أن يتطوع كل رجال القرية . . ويتخلف متولى أبو حسين . . أنت لا ترضاها على نفسك . . عليوه – اسم النبى حارسه – عاد بالأمس من المدرسة حزينا . . يظل

الغيظ من عينيه . . لأن الناظر رفض أن يسجل تطوعه لمحاربة الإنجليز . . لأنه لا يستطيع أن يحمل السلاح . . أبكاه لأنه قال له أن الحرب للرجال . .

– أبى . . عاوز بندقية . . أقتل بها الإنجليز الذين أخذوا جدى معهم وقتلوه . . مدرس التاريخ عندنا قال لنا بأن الفلاحين يجب أن يكونوا أكثر الناس إصراراً على هزيمة الإنجليز . . لأنهم لو هزمونا وحكموا مصر مرة أخرى فسوف يعيدون حكم البشاوات ويعطونهم أرضنا من جديد ! » .

قالها عليوه فجأة من خلال الصمت بعد ما نهض من فراشه يصغى لما يدور بينهما من حديث . .

قبلته عائشة وهى تحتضنه إلى صدرها . . بينما نظر إليه متولى فاغر الفم فى ذهول .

– « وأنت ما الذى يجعلك تفكر فى الموت يا متولى . . هل كل هذه الجموع التى تطوعت وحملت السلاح . كلها ستموت ؟ ! ثم إن ما سيجرى على الناس . . سوف يجرى علينا »

لم يكن متولى يلتفت إليها . . كان غارقا فى ذهوله . كلمات عليوه كشفت له جوانب كان غافلا عنها . . « مدرس التاريخ . إنه يقول الحقيقة . . الحقيقة التى غابت عنه . . نعم لو عاد الإنجليز . . فسيعود شاهين باشا أيضا . . بالتأكيد سوف يعود . . سيعود ببطشه . وأتباعه ليأخذ منهم الأرض التى اغتصبها أبوه من أصحابها بكرابيج الإنجليز . بعد ما فشلت ثورة عرابى كما يقول الشيخ عبد الباسط . . سوف يطرد الفلاحين . . سيلقى جثثهم للكلاب كما هددهم « مندور » ابن أخته عندما شاعت الأخبار بأن الإنجليز ينوون العودة . . انتقاما

لتأميم القنال . . سيعود مسعورا يتشفى لغيظه بعد أن رأى الذين كان يعتبرهم عبيده . قد رفعت الثورة والأرض الجديدة رؤوسهم . . عليوه يريد بندقية يحارب بها الذين قتلوا جده . . انتزعوه عريسا ما زالت « الحنة » فى يديه . ودفعوا به إلى بلاد نائية غريبة . لم يسمع حتى بها . ومات من أجل لا شىء يخصه . . مات شهيدا بلا قضية . . تماما كما يقول الشيخ عبد الباسط من أجل إمبراطورية تضخمت بدم الشعوب . . وشاهين باشا سيعود . ويصبح هو من جديد أجيرا . . يذيب حياته فوق أرض يسمدها بدمه . ويغتصب خيرها غيره . . لا . . لن يحدث هذا . . لن يعود شاهين باشا بظلمه وبغيه . وعصابته . ومجرميه . . لن يحدث هدا . . لن يعود شاهين . . سيدافع عن هذه الأرض . . بدمه . . إذا اقتضى الأمر . . يموت . . أفضل من شاهين باشا والإنجليز الذين قتلوا والده فى أرض لا يعرف أين تكون . . يموت . . ليكن . . ستظل الأرض لابنه . لعليوه . . للفلاحين ! ! »

والتهم فطوره . ثم نهض يصلى . . وبعدها استعاد من عليوه تفاصيل ما قاله مدرس التاريخ ثم انطلق إلى دار العمدة . . يراوده الأمل فى أن يلتقى هناك بالشيخ عبد الباسط ! ! .

كتبت فى أكتوبر سنة ١٩٥٧ ونشرت بمجلة « الثقافة » فى يونيو سنة ١٩٦٤ .

أشياء لا يدركها

الشمس تنحدر نحو الغروب ، وئيدة تعانق فلولها المتكاسلة هامات أعواد الذرة . . والجسر يمتد ويبدو كأنما لا نهاية له . وفلاحة وسيمة ينسدل ثوبها الأسود حتى يغطى قدميها تتلاحق خطواتها سريعة ، متعجلة وخلفها يلهث طفلها الصغير وقد رسم التراب المختلط بالعرق على وجهه خيوطا متعرجة . وهو يحتضن إلى صدره « جروا » هزيلا بانت ضلوعه . ومن وراء أعواد الذرة يختلج فى الفضاء عواء الكلاب وثغاء المواشى العائدة إلى النجوع . .

طفق الجرو ينبح عندما رأى ضفدعة رمادية صغيرة تقفز فوق حافة « الترعة » بينما تأوه الصغير وهو ينتزع من باطن قدمه شوكة أخرجها بالدم . ثم شرع من جديد يركض خلف أمه بدون أن ينبس بكلمة . وقد بدا على الأم كذلك أنها غير مستعدة لسماع أى شىء على الإطلاق ! . .

عوى الجرو من جديد ثم «خمش» كف الصغير فنظر الأخير إليه ولحق بأمه يقول :

– إنه جوعان . . فهو يعضنى !

– اقذفه فى الترعة !

قالتها وغذت السير صارمة متجهمة . . وكأنما بإجابتها تنتقم من شىء ما . . يبدو مشوبا بالغموض على وجهها . . ارتجف الصغير . . هالته إجابتها . . وأسرع يحدق فى عينيها ! . كيف يمكن أن يتخلى عن جروه بهذه البساطة ، وبتلك الطريقة . وهى تعرف مدى شغفه به . تعرف أنه لا يطيق فراقه لحظة ، حتى فى الليل كان يصر على أن يحتضنه إلى صدره عندما ينام غير مهتم بتأفف ابنة عمه الصغيرة الشقراء وهى «تكشر» عن أساريرها . معربة عن امتعاضها لتصرفه . .

عندما تذكر هذا استغرق يفكر . . لماذا غادرت أمه بيت عمه . لماذا ؟ ! والطعام هناك من الجودة بحيث إنه يتألم كثيرا عندما يقارن بينه وبين ما يتناوله الآن . . الفراش كذلك ناعم ونظيف . . بدلا من النوم هكذا فى العراء بجانب أجراء التراحيل والحشرات التى تنثرها أجسامهم برائحتها العفنة . ثم هناك لعب . وراديو . وأشياء طريفة . كانت تسره . وتبهره . . بجانب «سمرات» الحلوة . . بشعرها الأصفر . و «حواديتها» الشيقة اللذيذة ! ! من جديد جرى وأصبح بجوار أمه . .

– أماه . . لماذا تركنا بيت العم . . كان طعامنا هناك بسهولة . . والآن تكدحين من أجل قوتنا ؟ !

– من الأفضل أن يأكل الإنسان من عرق جبينه !

أجابت وهى تسرع فى سيرها . وبدون أن تلتفت إليه .

– لكن هناك طعاما أحسن . وفراشا لنا !

– عمك لم يكن يفعل هذا من أجلنا . أنت صغير . هناك أشياء أنت الآن لا تدركها ! . .

ما إن قالت هذا حتى تزايدت صرامة وجهها . . وتزايدت حيرة الصغير . . كان أبوه يعامله بحنان ورقة ويجيب على كل سؤال يبتدره به إجابة يفهمها . لم يقل له أبدا . هناك أشياء أنت لا تدركها . . !

– قولى لى . . أين أنت ذاهبة يا أماه ؟

– هناك بعد الجسر « أبعدية » سأعمل بها . . وبعد ذلك أذهب إلى أرض « البرنس » . .

– وهل يضربوننا هناك . كما جلدوا أبى فى « أرض شيرين » خالتى « حليمة » قالت إنه مات من شدة الكرابيج !

– الواحد يموت . . عندما ينتهى أجله .

– أماه . . بطنى تعضنى !

– ألا تزهد « الرغى » أبد . . عندما نصل إلى « القنطرة » سأشترى لك خبزا وباذنجانا . .

صمت الصغير لحظة يقاوم خوفه من غضبها . ولكن الكلمات انفلتت برغمه .

– هناك . . فى بيت عمى . لحم . وعيش أبيض .

– قلت لك اسكت . . سكت حسك . . !

حزت فى قلبه لهجتها . . أبدا لم تكن هكذا جافة . . ما الذى يجعلها هكذا قاسية على غير العادة؟

وقاوم دموعه عندما ومض السؤال فجأة فى ذهنه . .

– أماه . . هل يأكل كل الناس من عرق الجبين . . عمى . . يأكل من عرق الجبين؟ !

لم تعطيه إجابة تريحه . . نهرته بحدة وغضب متهمة إياه بالثرثرة وتلاحقت خطواتها ! !

على ضوء القمر لاحت « القنطرة » أخيرا . بينما اشتد عواء الكلاب فى الشمال وراء الجانب الآخر من الترعه . وانطلقت الضفادع تعزف ألحانه الناشزة . . وعندما وصلا وجدا هناك بعض عمال التراحيل يقضمون خبزهم . ألقت المرأة حملها فى إعياء واشترت للصغير طعاماً أخذ يأكل منه ويعطى الجرو لقيمات متساوية تماماً مع نصيبه ! !

فى الغد كانت الشمس تلفح الوجوه بشواظها ، والفئوس تعمل فى أعواد الذرة فتميد ثم تتهاوى فوق الأرض متشابكة ، فيجمعها الصبية فى حزم ثم يبسطونها فوق الأرض الخالية لتقطع « المناجل » كيزانها . .

ظل الصغير يراقب أمه وهى تهوى بفأسها فى جذور الأعواد القائمة فتسقط إلى الأرض مترنحة . . فى البداية كانت تتوالى ضرباتها فتية . ولكنها بمرور الوقت غدت فاترة . . خائرة تنتزعها بصعوبة والعرق « يخر » من جبينها . وبين كل ضربة وأخرى يلفظ صدرها آهة لاهثة مكدودة . ولكنها كلما وجدت « خولى »

العزبة يقترب منها انتزعت من ضعفها قوة فتتلاحق ضرباتها بلا توقف حتى يكاد قلبها يطفر مع كل ضربة . . ونال منها الإعياء حتى لم تعد يدها تقوى على رفع الفأس من جديد فتوقفت لاهثة . . خائرة . . والصغير ينظر إليها والألم يتعصر قلبه . متمنيا لو أن كان بوسعه أن يؤدى العمل بدلا منها .

– أماه . . كنا نأكل هناك . . بدون هذا العذاب . .

قالها بدون أن ينظر إليها . .

فألقت بالفأس من يدها ونظرت إليه بغيظ . واندفعت كلماتها مهتاجة حانقة .

– قلت لك أغلق فمك . من أجلك أنت أفعل هذا . . لولاك ما كنت أشق هكذا . . كنت تزوجت وأصبح لى من يعول همى . . بدلا من هذا الغلب . ومع ذلك لا يرضيك هذا وتصدع دماغى برغيك دائما ! ! .

أشاح الصغير بوجهه بعيداً وتساقطت دموعه ثم أخذ يشهق بنحيبه وأحست بدموعه كجمرات تحرق قلبها . وما لبثت أن انهمرت دموعها هى الأخرى . . وعندما رأى الصغير دموعها تعالت « نهنهاته » محمومة متشنجة . . شىء ما يصنع هذا العذاب . . ما هو ؟ لم يجد لحيرته خلاصاً فدفن وجهه فى كم جلبابه وأعطى ظهره لأمه . .

– حمادة . . لا تزعل يا حبيبى . . أنا أمك . . وحقك على ! .

.قالتها بنبرات حزينة . . ولم يلتفت الصغير إليها . . تزايد نشيج نحيبه . . فتحاملت على نفسها ونهضت تخطو نحوه . . ثم أمسكت بيده واحتضنته إلى صدرها . . تقبله وتمسح بشفتيها الدموع المتساقطة فوق خده . .

– حامد . . هل يخاصم الواحد أمه . . لاتبك . . كن رجلا . . أنت الآن رجلى . . عندما تكبر سأزوجك عروسة مثل القمر . . أحلى من « سمرات » بنت « عمك مدكور » .

أطلت الأحلام من عينيها وهى تقول ذلك . وكف الصغير عن شهيته . . وعندما سمعت خطوات الخولى تقترب منها أفلتت الصغير وخطت تمسك بالفأس من جديد . . وخطا الصغير نحوها يقذف بالسؤال من جديد :

– أماه . . قولى لى . . لماذا تركنا بيت العم ؟ !

كانت « سمرات » فى خاطره وهو يسأل ! ! أيقنت المرأة أن السؤال لن يموت فى ذهنه . وأبداً لن يكف عن ترديده . . كيف يمكن أن تجد إجابة تدخل عقله ؟ !

– عمك ياحبيبى . . ليس طيبا . . كان يريد أن يأخذنى منك . . مقابل طعامنا كان يريد منى شيئا . . من أجلك أنت . ومن أجل المرحوم فى تربته لايمكن أن أفرط فيه ! !

أعطى الصغير قسمات وجهه طابع رجولة . وهو يهز رأسه . . وكانت هى متأكدة من أنه لم يفهم شيئا . . فقط لايريد أن يبدو غبيا ! !

وتركها وذهب بعيدا يحتمى من حرارة الشمس تحت ظل الأعواد المنتصبة . . وجد هناك فرس « ناظر العزبة » مربوطة فى « وتد » خشبى غائر فى الأرض وعن قرب منها سلة مليئة بالخبز الأبيض والسمك المشوى وجبن الضأن . وثمار « الجوافة » . .

تحلب ريقه وقد تسمرت نظراته داخل السلة مبهورة . . وشعر بالجوع يقرص

معدته ، تاق لأن يلتهم واحدة من الثمار . منذ أن غادر بيت عمه والفاكهة لم تدخل فمه . . جوافة هنا . وليس هناك من يراه . مد يده ولكنها تراجعت . . هناك شيء ما فى أعماقه انبرى يحذره . . ومرة أخرى امتدت يده . . وأيضا توقفت . . وداس على شفته السفلى بأسنانه ونسى كل شيء ما عدا أن يأكل جوافة ! !

لم يكتف بواحدة . فالتهم غيرها . . ثم ثالثة . . وتذكر أمه . . هى الأخرى لابد جائعة . والجرو كان ينظر إليه فألقى له بواحدة ظل يتشممها ثم ابتعد عنها ! !

ونظر حوله فى كل اتجاه . . امتدت يده مرتعشة وأخذ قبضة دفنها فى جيبه . . ثم انطلق يجرى وخلفه الجرو يتابعه بالعواء !

– أماه . . أماه . جائعة أنت . . خذى جوافة !

وامتدت يده داخل جيبه . . تخرج لها ما بداخله . .

صوبت المرأة نحوه نظرات مدهوشة متسائلة :

– حامد . . من أين جئت بها ؟

سؤالها الغاضب أمات الكلمات فى حلقه . . وعاد السؤال غاضبا من جديد ونظراتها تحمل الاتهام مشتعلا بالوعيد .

– حامد . . انطق بسرعة . . من أين أتيت بها . .

وغامت أساريره . لم يكن يتوقع أن تواجهه بهذه اللهجة الغاضبة . . ماذا جرى لأمه أخيرا تصرفاتها أصبحت غير مفهومة له . . وتحيره .

– تكلم . . من أين جئت بها . .

وامتدت أصابعها تشد أذنه . . فتأوه الصغير .وانطلق الجرو يعوى . والصغير يقف فاغر الفم مرتبكا والعرق يسيل فوق جبينه وتتساقط قطراته فوق الأرض بدون أن ينبس بكلمة . . والمرأة مازالت تلق بسؤالها وتطالبه بأن يفسر لها وجود الثمرات معه .

امتدت يده المرتعشة تمسح قطرات العرق من فوق جبهته . . فخطرت له الفكرة .

– إنها . . إنها . . من عرق جبينى . . جئت بها ! !

وليقدم الدليل فرد يده « المبللة » بالعرق . وأدناها منها . . ممتدة تحت بصرها . ثم تناول واحدة من الثمار وقربها من فمها .وهو يرتجف . . والجرو يعوى ! !

كتبت فى سبتمبر سنة ١٩٥٣ ونشرت بمجلة « الثقافة » فى يناير سنة ١٩٦٥ .

امرأة من بورسعيد

تناهت إليها هتافات الجماهير من بعيد . . غاضبة . . متوترة . . تهدر بحياة مصر . . وتتهدد أعداءها بالموت . . فاهتز قلبها وهى تقف بجوار عربتها الخشبية الصغيرة وبخار «كيزان البطاطا» يتصاعد حولها فى تعرجات ملتوية . . ونظرت إلى عمال الميناء وهم يتجمعون عند مدخل البوابة ، وزفر قلبها تنهيدة حارقة . . لماذا لاتسير الحياة هادئة فى سلام . . بدلا من أن يتهددها الخطر هكذا دائما ؟ . . واقتربت الأصوات الهادرة . . سواعد شابة تلوح مصممة . وتشهد الدنيا أنها متأهبة لأن تفتك بأى غاز يسول له الغرور أن ينتهك كبرياء الوطن . .

ظلت نظراتها تحدق فى الجموع . . وقد أهاجت الهتافات مشاعرها . . أحست بها تخدش الجرح الكامن فى قلبها . . وانهمرت الدموع من عينيها . . كان هو أيضا يردد نفس الكلمات . مصر . والاستعمار . والحرية . وشرف

الوطن . . وكان فى نفس العمر تقريبا . . بضراعة قلبها كأم كانت تناشده أن يتفرغ لدراسته . . ومستقبله . وأن يبتعد عن الخطر . .

وكان دائما يعارضها بأن الوطن هو مستقبله .. ولا مستقبل أبدا لوطن يدنس الغزاة أرضه .. ويعيش ناسه كالغرباء فيه ..

ولم تكن تفهم كلماته غالبا .. كل ما تفهمه أن تصرفاته تعرضه للخطر .. حيث ينطلق دائما مع رفاق له فى عمر الزهور كلهم يتحدث نفس اللغة .. وكلما سقط أحدهم فى المعركة أثناء هجومهم على معسكرات الإنجليز .. يعتصر قلبها العذاب . فتركع تحت قدميه ليرحم شيخوختها .. وأن يدعها تواجه الموت فى سلام .

« حسن .. حرام عليك أن تشوى قلبى هكذا .. الخوف يميتنى عشرات المرات كل ليلة .. لقد صرعت العشرات منهم يا ولدى .. ألا يكفيك ما فعلته لتنتقم لأبيك .. أخذت ثأرك مضاعفاً مائة مرة » . .

ودائما كان يجيبها بقوله بأن المسألة ليست كما تتصورها .. فإن مقتل والده بيد الإنجليزى المخمور ، لم يكن أكثر من ضوء كشف له جوانب المأساة التى يعيشها وطنه تحت سيطرة الاستعمار وعملائه .. الهدف الأساسى من كفاحه .. هو أن يندحر الاستعمار تماما كنظام .. أن ينتهى وجوده .. سواء هنا أو فى أى مكان من أرض الله .. مصرع والده مسألة فردية تخصه وحده .. ولكن ما يفعله والرفاق مسألة تعنى الإنسانية كلها ..

ورغم أنها لم تكن تفهم إجابته .. ولكن قلبها برغم الخوف كان ينتشى

بها .. ثمة إحساس غامض يؤكد لها أن ما يقوله هو الحقيقة .. وإن كانت لا تعرفها ..

ليرحمه الله .. كان طيبا .. وعطوفا .. يحب الكتب . والأطفال . ويعشق الحياة .. لم يقدم للحياة إساءة أبدا .. مرة فى لوثة غضبها اندفعت تتهمه .. بأن قلبه قد مات .. وغاضت منه الرحمة .. ما دام يندفع هكذا بجنون الحقد لقتل هؤلاء الجنود . وهم أبناء ناس أيضا .. لأمهاتهم قلوب تتعذب . ولأطفالهم حياة يعصف بها اليتم .. وابتسم فى وجهها بأن الحقد ليس هو الذى يحركه .. وإنما الحب .. حبه لوطنه .. ولناسه .. وحبه أيضا للناس فى بلاد أخرى .. هو الذى يدفعه لأن يقتل بعض الناس .. « يا أمى لكى تكون السعادة لكل الناس . لا بد أن يموت بعض الناس .. بعض الذين يشوهون الحياة ويزرعون فيها الأشواك . وبعض الذين يجملون الحياة ويغرسون بها الزهور .. » ليرحمه الله .. قتلوه فى النهاية ! ..

ومرت أمامها فرقة من شباب المقاومة الشعبية .. البنادق تحملها السواعد فى رجولة . والإرادة تطل من العيون . والخطوات واثقة ..

وانطلقت الهتافات من المقاهى .. ومن القوارب فى عرض الميناء .. وتابعت خطواتهم بنظراتها الحزينة .. لو كان حيا .. لكان الآن بينهم قطعا .. كان ينتظر اليوم الذى تحمل فيه مصر السلاح بأسرها .. ولكنهم اغتالوه قبل أن يرى مصر المسلحة .. صرعوه برصاصاتهم الغادرة .. لا فى المعركة .. وإنما فوق الفراش أمامها .. هى أمه ..

وأفاقت من خواطرها عندما رأت « جودة » ابنها الصغير الذى أخذ فى العام

الماضى شهادته الإعدادية .. الصغير يقترب منها وهو يتزعم مجموعة كبيرة من أصحابه أبناء « حى المناخ » .. منذ أن أعلنت بورسعيد التعبئة . وهى لا ترى جودة إلا لماما .. اندمج تماما فى لعبة تختلف عن الألعاب التى كان يمارسها من قبل .. أصبح يقلد شباب المقاومة فى تكوين فرق من الغلمان فى كل الأحياء .. يتزعمها ويطوف بها شوارع المدينة . وهم يرددون نفس الهتافات التى يرددها الكبار ..

وفطن الصغير أنها تريد الإمساك به فأشار لغلمانه وانطلق يسابق الريح وجرت خلفه تناديه فلم تجاوبها إلا قهقهات الصغار ساخرة من بعيد .. وأعادها إلى عربتها صوت أحد العمال يطلب كوزا من البطاطا ..

« أطفالنا . . وجدوا لهم لعبة جديدة . . » قالها الرجل فارتجف قلبها وهى تقدم له كوز البطاطا قائلة :

ولكنها لعبة .. يبدو أنها خطرة ..

وانصرف الرجل مؤكدا لها بأن الله سوف ينجى مصر من الخطر .. ويقيها شر أولاد الحرام .. وغاب موكب الغلمان عن بصرها .. الصغير الأرعن قال لها بالأمس أن فرصته قد حانت .. ليثأر لأبيه .. وحسن من الذين حرموه منها .. « فصوت العرب » يؤكد فى إذاعاته للشعب أن القراصنة ينوون العودة من جديد لاغتصاب القناة . وإسقاط الزعيم الذى أحال أسدهم إلى كلب عجوز .. متهدم الأسنان .. لا يملك إلا أن ينبح من بعيد ..

ونهرته ساعتها وهى تتذكر ما حدث لأخيه .. بأن تلك مهمة تخص الكبار وحدهم ولا شأن للأطفال أمثاله بها ..

وتصنع الرجولة يقول لها : « بل إنها تخص كل من يعيش فوق أرض هذا الوطن يا أمى » ثم ابتسم فى وجهها وهو يردف : « ثم إنى لم أعد بعد طفلا » .

هو الصغير .. من أين يأتى بالكلمات التى يقولها .. ويعجز الكبار عن الإجابة بمثلها .. أهى المدرسة التى تعلمها له .. أم المذياع الذى يتابع برامجه بشغف كالرجال ..

وانتهى النشيد الحماسى الذى كانت تردده المجموعة من مذياع المقهى المواجه لعربتها .. وانطلق المذياع يتلو بيانا حربيا عن العمليات العسكرية فى سيناء ... بعد أن قررت القيادة الانسحاب .. إحباطاً للمؤامرة . فالمعركة ستكون فى مصر نفسها . وراء القناة ..

وتوترت أعصاب الرجال حول الجهاز .. وانتهى البيان فتدافعت التعليقات .

– سنذيقهم طعم الموت .. لن نريهم وجه بلادهم مرة أخرى .. سوف نتيح لأسماك بحرنا وليمة دسمة ..

بورسعيد بأسرها تقول نفس الكلمات ..والسلاح فى يدها .. وهى تنتظر وأم حسن تقف بجوار عربتها تحدق فى وجوه الرجال المهمومة .. والهواجس تعذبها .. ما يتحدث به الناس يعنى الحرب بالتأكيد .. إنها واقدة .. عيون الرجال تؤكد هذا .. الحرب .. إنها تعرفها جيدا .. كابدتها من قبل مع زوجها العامل فى الإسكندرية قبل هجرته إلى بورسعيد .. تعرفها جيدا .. الخراب . والدمار . والموت . والجوع . ثمة إحساس بالخطر الخاص يدهم قلبها .. جودة .. إنه كل ما تبقى لها فى هذه الدنيا .. لماذا لا تعيش الدنيا فى سلام

ويدعونها تربى وليدها . وتراه رجلا ؟ .. وتفيق من هواجسها على صوت « حامد البنبوطى » وقد جاء فجأة يجرى لاهثا .. يعلن النبأ للرجال فوق مقاهى الميناء .. قوات الغزو الجوى تهبط بمظلاتها فى « الجبانة » ولم ينتظر الرجال إيضاحا .. لم يسألوه حتى عن التفاصيل .. انطلقت أقدامهم تركض فى جنون .. بينما قلب العجوز يرتج داخلها . وإحساس غامض بالفاجعة يطبق عليه بين الضلوع .. جودة .. جودة .. وغامت الدنيا أمامها .. واندفعت تجرى فى اتجاه الجموع .. جودة لم يعد لها الآن سواه .. أبوه قتله الجندى المخمور داخل « كامب التشهيلات » ، وحسن الفدائى .. زينة الشباب اغتالوه فى فراشه .. بعد ما دوخ المعسكرات وأصبحت هجماته البطولية أسطورة ترددها الدنيا كلها .. جودة . جودة يقذف بها قلب العجوز الملتاعة فتضيع وسط الزحام .. وتتابع ركضها الملتاث وهى تتعثر .. ثم تنهض من جديد .. تواصل جريها المجنون .. وتعاود نداء قلبها المكروب ..

وتوقفت هناك .. تشاهد أول فوج من قوات الغزو وقد غرق تماما فى دمائه وتناثرت جثته .. واسودت الدنيا أمامها .. فثمة جثث صغيرة ملقاة .. هنا .. وهناك . بعد أن حصدتها مدافع المظلات .. قبل أن تنتقم لها قوات المقاومة .. وزاغت نظراتها الملهوفة تتفرس فى الجثث الغضة الصغيرة .. التى يطل الموت من أفواهها الفاغرة .. بلا حياة ..

وتصطاد نظراتها جثة ولدها ملقاة فوق الرمال .. واندفعت فى جنون تحتضن الجثة الصغيرة الغارقة فى دمها .. جودة والسكين فى يده مغروسة حتى النصل فى صدر الجندى الأحمر بجواره .. ظلت تحدق فى الجثة الصغيرة بلا كلمة ..

نظرت إلى السماء فى صمت . واقترب منها أحد شباب المقاومة :

– أم حسن .. كلنا نعرفك .. ليست تلك أول تضحية لك من أجل مصر .. ليست الأولى .. نحن نعرف ..

لم تنظر إليه .. كانت تحدق فى الجثة بين يديها .. ويعاود الشاب كلماته :

– أعرف أن الكلمات تافهة .. أعرف ذلك .. ولكن .. أم حسن .. اعتبرينا جميعا نحن شباب مصر أبناء لك .. إننا نعتبرك أم مصر بأسرها ..

واغرورقت عيناه بالدموع وهو ينحنى يحاول أن يمسك يدها .. ولم يتمالك أعصابه .. فانهمرت دموعه .. ونظرت إليه المرأة بدون أن تقول شيئا . توقفت نظراتها عند دموعه .. وفهم ما تعنيه نظراتها فأحس بالخجل وأشاح بوجهه بعيدا .. ولكنه فشل فى أن يوقف دموعه ..

ونهضت العجوز تحمل جثة ابنها فى صمت والجموع من حولها فى عيونها إرادة الانتقام ولكنها لا تجد الكلمات .. صمت العجوز أخرس كل الألسنة .. وعندما حانت منها التفاتة إلى الشاب الواقف عن يسارها ما زالت تهطل دموعه أعادت الجثة إلى الأرض من جديد وتقدمت نحوه تغرس نظراتها الحنونة العاتبة داخل أغوار عينيه .. ثم مدت يدها المعروقة تكفكف بطرف شالها دموعه ..

وأمسك الشاب بكتفيها وقد تقلصت أصابعه فوقها .. فاحتضنته إلى صدرها تقول :

– « إنها الآن مهمتكم يا ولدى .. »

– « وأيضا مهمة كل من يعيش فوق أرض هذا الوطن يا أم .. »

نفس الكلمات التى قالها الصغير .. وأكدها بموته .. مهمة كل من يعيش

فوق أرض هذا الوطن .. عادت إلى الوراء .. وامتدت يدها برفق تنتزع سكين ابنها من صدر الجندى المطروح جثة فوق الرمال .. الآن فهمت معناها .. لكى تكون السعادة لكل الناس ، لا بد أن يموت بعض الناس .. الذين يشوهون الحياة .. والذين يجملونها أيضا .. كلمات حسن ..

تنهدت وهى تتفرس فى جموع الشباب من حولها .. ودوى أزيز الطائرات فوقها ، فهزت السكين وانطلقت نظراتها تحدق فى الأفق غاضبة ...

كتبت فى أكتوبر سنة ١٩٥٧ ونشرت بمجلة «الثقافة» فى يوليو سنة ١٩٦٥ .

الطريق الآخر

القاهرة واجمة يكتنفها الضباب . وسيول المطر تنهمر فى شوارعها .. الضباب ليس فى الأفق وحده . الغيوم فى عيون الناس أيضا وهم يعبرون الشوارع . ويقفون تحت الشرفات فى انتظار عربات النقل العام .. « زهيرة » كذلك عيناها كانتا غائمتين بالضباب وهى توقظه . هو الآخر تتكاثف غيوم الكآبة فوق قلبه . وهبط من « التاكسى » والحقيبة الصغيرة فى يده عند ناصية « شارع خيرت » واتجه إلى الرصيف بعد أن دفع الحساب ليحتمى من المطر تحت « تندة » تاجر الخردوات . وعندما كف المطر عن الانهمار وغدا قطرات متقطعة من الرذاذ اجتاز عرض الشارع ودلف داخل المقهى الشعبى الصغير بعد أن أطل خلفه بنظرات جانبية علمته الخبرة أن يجعلها لا تشى بأنها مقصودة ولم يجد أحدا يراقبه ! ! ..

فى المقهى بضعة رجال يحتسون الشاى ويدخنون السجائر و « التنباك » وألقى بتحية الصباح ثم طلب كوبا من الشاى وتطلع إلى ساعته .. جاء فى وقت مناسب تماما .. الساعة الآن السابعة .. « كمال رشوان » يخرج غالبا فى الثامنة . ولابد أن يجتاز هذه الناصية فى طريقه إلى محطة « الأتوبيس » .. كمال أضمن واحد لمثل هذا الموقف .. فهو من جهة يعيش وحيدا فى منزله إلا من الخادم القروى الصغير . ومن جهة أخرى لا تحوم حوله شبهات ما رغم مشاركته السرية فى الحركة الوطنية .. له رجولة « الصعيدى » الذى يخاطر بكل شىء فى سبيل مبادئه وله فى نفس الوقت دهاء الفلاح الذى يوهم الآخرين بأن مكره مجرد سذاجة ! !

مهنته كضابط بوليس فى « القلم المخصوص » تمكنه من تأدية خدمات موفقة لرفاقه .. وزعق بائع الصحف خارج المقهى ينادى بالأخبار الجديدة .. استقالة الوزارة وتأليف وزارة جديدة .. وناداه « عبد الغفار » واشترى صحيفة « الأهرام » وانطلق يتفقد العناوين : الوزارة الجديدة تحلف اليمين عصر اليوم فى « عابدين » .. جاء الرجل الثعلب أخيرا .. الدوائر العليمة ببواطن الأمور كانت تراهن على مجيئه .. وتابع قراءة الأسماء .. إنه يعرف بعضهم معرفة وثيقة .. أسماء كان لها وزنها الوطنى ذات يوم .. ولكن الأيام والأحداث فضحت انتهازيتها المتخفية ..

وتسمرت نظرات عبد الغفار عند اسم « وزير الحقانية » عبد الستار المنقبادى .. أصبح خاله وزيرا . تحققت فى النهاية أمنية عمره .. راودته رغبة فى أن يبصق فوق الاسم وهم بأن يفعل لولا أن لاحظ أن الرجل الذى جلس أخيرا

عن يساره يتابع القراءة معه فى الصحيفة .. وغامت الدنيا أمامه وهو يواصل القراءة « وحيد المملوك » وزيرا للدولة .. كيف تحول الوطنى المثقف إلى وزير فى حكومة مشبوهة .. الكل يعرف أنها جاءت خصيصا لتصفية الغليان الثورى . الذى فشلت الحكومة السابقة فى تهدئته بعد حريق القاهرة ..

زهيرة .. ستأكل الحسرة قلبها عندما تعرف أن جارهما وصديقه قد أصبح وزيرا .. بينما زوجها يطلبونه للاعتقال .. وحيد . كيف خان تاريخه . وقبل الوزارة فى هذه الفترة . كان مقربا من رئيسها أيام كانت للرجل مواقف وطنية بالنسبة للتعليم فى كل مرة ولى فيها وزارة المعارف . فى الشهور الأخيرة كان الرجل يدلى للصحف بأحاديث مريبة عن الفساد فى جهاز الحكم . والرشوة . والمحسوبية . وكان عدم اشتراكه فى وزارة حزبه عندما جاءت به الانتخابات إلى الحكم موضع تساؤل الشعب ودهشته . وأصبحت مواقفه بعد ذلك متعارضة مع مواقف الحزب الذى فصله فى النهاية .. وبعد مقابلته لرئيس الديوان .. عرف الناس أن هناك دورا ما فى انتظاره .. ها قد جاء دوره ! ..

وابتسم عبد الغفار ساخرا ونظراته تترصد كمال رشوان بين الذين يعبرون الشارع أمامه . كان هو أول من فكر فيه عندما أيقظته زهيرة من نومه لتفضى له بأنباء الاعتقالات التى حدثت فجرا فى البلد .. الرسول السرى أبلغها بأن عبد الغفار هو أحد المطلوبين ..

مسكينة زهيرة .. أشقاها معه . لم تستمتع كغيرها من النساء بحياة زوجية مستقرة . لم يعطها غير القلق . والهواجس والخوف المتواصل من المجهول ! !

الساعة أصبحت الثامنة .. كمال رشوان لماذا تأخر هكذا .. أيكون اليوم فى

إجازة .. أم منتدبا فى مهمة ؟ .. زهيرة اليوم أيقظته فى تجهم على غير العادة . فى كل مرة مماثلة كانت تفضى له بالنبأ أو تسمعه منه فى حزن ولكن بدون مرارة . كانت تحاول دائما إخفاء إحساسها بالتعاسة . اليوم بدت وقد نفد صبرها ! ! حظها كان تعسا إذ وقعت فيه .. المرأة تتزوج لتجد فى كنف رجلها الهناء والأمان .. هو لم يعطها غير الإحساس الدائم بتوقع الخطر !

اكتظ المقهى بالزبائن من حوله لا حديث للناس إلا عن الوزارة الجديدة . وبدأ الضباب المتكاثف فوق قلبه ينجاب رويدا .. أحاديث الناس تؤكد بأنهم يعرفون مهمة « وزارة التطهير » ! ..

كمال رشوان . ما حكايته .. غير معقول . من الخطورة أن يذهب إلى داره الآن .. ربما يكون هناك من يراقبه . ومن الإجرام أن يورطه معه .. رغم أن « الصعايدة » يتزوجون غالبا فى سن مبكرة. كان كمال رشوان أعمق منه ثورية فأبى أن يتزوج ليتفرغ للقضية الوطنية نهائيا . كان رأيه دائما أن الرجل الذى يعطى حياته لقضية يجب أن يوقف عليها كل وجوده .. هو الذى كان « رومانسيا » فتوهم أن بالحب وحده تحيا زوجة .. كيف انساق لعواطفه وقتها .. زهيرة اليوم كانت فى عينيها مرارة لم تستطع مداراتها .. ربما أصبحت نادمة . ولم تعد تحبه .. لها الحق فى أن تندم .. بل لها الحق فى أن تبغضه .. كل تافه فى دنيا الأدب والصحافة أصبح له شأنه .. أما هو فلا شىء سوى كتبه المصادرة وتاريخه فى الحركة الوطنية .. لا يكاد يجد مكانا فى صحيفة وطنية حتى تعصف به البطالة من جديد .. سواء بسبب المحاكمات . أو لتوقف الصحيفة أمام

الضغط عليها بالمصادرات . وعجزها عن الوقوف صامدة أمام صحف الرساميل والأحزاب ..

لها الحق فى أن تندم .. ما دام قد اختار الطريق الصعب بدون أن يقسره أحد فقد كان يجب أن يمضى وحيدا !

وخطرت له فكرة ملأت قلبه بالتعاسة .. من الأفضل أن يطلقها .. أن يعطيها الحرية لتبحث عن رجل تجد عنده ما افتقدته لديه . ولكن « سلوى » الصغيرة ما ذنبها لتتحطم هى الأخرى حياتها .. كمال رشوان ما حكايته .. وأدرك مدى شذوذ الوضع فى أن يظل بحقيبته هكذا فى المقهى بين ناس لم يألفوا من قبل وجوده .. أين يذهب .. المباحث الآن منبثة قطعا فى كل الأمكنة .. كمال رشوان ما خطبه .. « علام المكوجى » يستطيع أن يقدم له معلومات عنه لو ذهب يسأله ..

غادر المقهى وقبل أن يصل إلى نهاية الشارع تشاغل بإخراج ورقة من جيبه ثم استوقف عابر سبيل يسأله عن اسم لا وجود له .. والتفت إلى الوراء بطريقة كأنها عفوية فلم يجد أحدا يهتم بشأنه . وواصل مسيره فى الشارع الفرعى والقلق بشأن زهيرة يراوده .. إن كانت نادمة فإنها محقة . برغم أنه لم يخدعها . منذ البداية صارحها بأوضاعه .. واختارت مصيرها بمحض إرادتها . ولكن كيف نسى أنها كانت مفتونة به . وأن شهرته . ومواقفه الوطنية يمكن أن تخلب لب فتاة مهما كانت مثقفة وجامعية فإن تجربتها محدودة . ومن الممكن أن تندفع وراء حلمها فى أن تتزوج بطلا . هو الأنضج تجربة كان عليه أن يضع هذا فى اعتباره ..

التقى بها فى فترة تعسة من حياته . وحياة مصر .. كانت نفسيته وقتها فى منتهى الكآبة . خان بعض الذين كان يعتبرهم أنبياء الثورة . باعوا أهداف مصر بالمصاريف السرية . والمناصب وإكراميات السفارات . وكانت مصر تتعذب وقتها أيضا . فالحزب الذى كانت تعلق عليه الجماهير أملها امتطى صهوة الحكم ودبابات الإنجليز تحيط به . وعناصر كانت ثورية مخلصة سارت فى مواكب المنفعة . وعناصر أخرى نفذ القنوط إليها وتراجعت أمام الإحساس بأنه لا فائدة ! ..

فى هذه الفترة اعترضت زهيرة حياته . التقت عواطفها فى بساطة . قالت له إنها مستعدة أن تحارب الدنيا كلها من أجل أن تسعد حياته . وتردد يقاوم اندفاعات عواطفه .. ماذا يملكه ليقدمه ضمانا لحياتهامعه .. صارحها بأنه لا يصلح لها . ومن الأفضل أن تعطى شبابها لإنسان يملك أن يقدم لها السعادة .. أما هو فقد نذر عمره لقضايا وطنه . واختار الطريق الآخر . وأن هذا هو قدره . واعترضت بأنها تحبه . وبالحب تستطيع أن تواصل معه الحياة فى وجه الموت ذاته .. وعندما تزوجها أبدت استعدادها لأن تترك وظيفتها لتتفرغ له نهائيا .. ولم يوافق حتى يكون مرتبها عاصما لها من الضياع عندما تنتهب الأعاصير مصيره .. إن زواجه بزهيرة هو الخطيئة التى لن يغفرها لنفسه أبدا .. إنها الشىء الذى يشوى ضميره ..

وعرج إلى الزقاق الضيق وبدلا من أن يتجه إلى « المكوجى » وجد نفسه تلقائيا يندفع داخل البيت الذى يقطنه كمال رشوان .. وخرج كمال يفتح الباب

بنفسه . كان يرتدى منامته والسيجارة فى فمه . وأوسع له ليدخل وهو يبتسم فى وجهه بلا كلمة ! ..

– (معذرة يا كمال .. حكاية كل مرة .. لن أضايقك طويلا .. بضعة أيام حتى أتصل بالزملاء ويدبروا لى مكاناً) .

ونفث كمال دخان السيجارة فى وجهه وهو يبتسم .. تعبيرات وجهه تنم عن معان غامضة .

– (كنت أنتظرك . صدقنى . أخذت اليوم إجازة عارضة لأكون فى انتظارك . كنت على يقين من أنك ستأتى بمجرد أن تشم الرائحة . ولكنك نجوت هذه المرة .. بالأمس عرفت كل الأسماء المطلوبة .. لست بينهم ! !)

وترك عبد الغفار غارقا فى ذهوله ثم عاد بكوب من الشاى الساخن قدمه لصديقه :

– (خالك عبد الستار أعطوه وزارة الحقانية .. ربما لهذا السبب لم تشرف اليوم « تخشيبة المحافظة » !)

لم ينبس عبد الغفار بكلمة .. كان يحدق فى الجدار تائها .. عجبا .. كيف أفلت هذه المرة .. كيف .. ليست هناك حكومة غير شرعية لم تقبض عليه بمجرد وصولها إلى الحكم ؟ !

وعاد كمال يتحدث باحتقار وتهكم عن خاله عبد الستار .. شعر عبد الغفار بالعار يجرفه . كلمات الصديق خناجر تمزق قلبه .. اختياره وزيرا بمثابة وصمة عار فوق جبينه هو .. كل الناس يعرفون أنه خاله .. كم يكرهه . عذب طفولته .. أعطوه له يتيما هو وشقيقه رمضان بعد ما توفيت أمهما وتزوج والدهما

المزارع الصغير من امرأة أخرى .. وكانا فى بيت خالها أشبه بالخدم منهما بأبناء أخته .. وفى هذا البيت أدرك منذ يفاعته بالتجربة قبل الثقافة أشياء كثيرة فتحت عينيه على واقع الناس فى بلاده .. خاله المحامى المعروف الذى يكتب فى الصحف متحدثا عن الإصلاح والعدالة . وإنصاف الشعب . رآه بعينيه ذات مرة فى بهو قصره . وتحت قدميه امرأة منهدمة تضرع إليه بدموعها أن يقبل منها ثلاثين جنيها هى كل ما استطاعت أن تقترضه نظير أن يدافع عن وحيدها المتهم فى قضية اغتيال سياسية .. رآها تقبل قدميه ليقبل بدون أن تهتز لتوسلاتها أية عاطفة فى قلبه .. بينما وكيل مكتبه العتل يركلها بحذائه لتنهض مؤكدا لها بأن سعادته لا يقبل قضية مهما كانت بأتعاب تقل عن مائة جنيه .. ومن وقتها عرف عبد الغفار لمن ينتمى ! !

وعاد كمال يتحدث عن خيبة أمله عندما فوجئ بوحيد المملوك ضمن أعضاء الوزارة .. لم يجد عبد الغفار فى نفسه القدرة على سماع المزيد فحمل حقيبته ونهض يستأذنه بحجة أن يعرف فى الخارج ما يحدث فى البلد .. وركب « الأتوبيس » إلى مصر الجديدة . ودوامة الأفكار تجرفه .. هل كان كمال رشوان يتهمه لأنه ليس مقبوضا عليه كالعادة .. ولأن خاله أصبح وزيرا .. نظراته الغامضة كانت تنطوى على ريبة ما .. ربما تكون المسألة لا أكثر من مصادفة ولا شأن لخاله بها .. فالعلاقة بينهما سيئة تماما .. كما أنه يبادله الكراهية .. !

من خلال خواطره المتشابكة أشرقت أمامه الحقيقة . فطن للخدعة التى يلجأ إليها البوليس السياسى أحيانا لتفتيت الحركة الوطنية . وضربها من داخلها . يعتقل بعض العناصر الثورية ويترك البعض طليقا .. وهنا تنشط العناصر العميلة

داخل الحركات الوطنية لتشيع بأن الذين لم يقبض عليهم ساوموا . وخانوا القضية . وباعوا الرفاق . وتصدقهم عناصر وطنيه متحمسة ولكنها غير متمرسة بأساليب العدو . وهنا تنقسم الحركة وتتصدع من داخلها .. كما حدث كثيرا لتجمعات وطنية لم تعصمها الأصالة الثورية من خدع مماثلة .. لا .. سيكون فى مكانه الطبيعى ولن يعدم الوسيلة لدخول المعتقل ما داموا قد استبقوه طليقا ! !

نزل من الأتوبيس عند « محطة روكسى » فى بداية الشارع لمح وفود المهنئين أمام بيت وحيد المملوك .. ها .. وفود النفاق جاءت لتهنئ الوزير ! وفى البيت وجد زهيرة تستقبله بالأحضان وتهنئه بنجاته . وتخبره بعشرات المكالمات التليفونية التى ظلت تطلبه منذ خروجه . خاله عبد الستار . ووحيد المملوك طلبه مرتين يخبره بأن خاله قد اختاره مديرا لمكتبه فى الوزارة ..

وارتجف كيانه وهو يتخلص من أحضانها .. ثم ارتمى فوق المقعد . خائر الجسد . منهوك الروح . تدور رأسه . هو مدير لمكتب خاله .. لمكتب عبد الستار المنقبادى .. مهزلة .. ألا يكفيه عار أنه غير مقبوض عليه .. فيزيدون المسألة تعقيدا ! !

ورن جرس التليفون فى الصالة فنهض يرفع السماعة . كان المتحدث خاله يطلب مجيئه إلى مكتبه وبهنئه بالمنصب الجديد . مكافأة له من رئيس الوزارة لمواقفه فى مهاجمة فساد الحزب الحاكم قبل حريق القاهرة .. وقذف بالسماعة فى وجهه يقطع المكالمة .. وساد يضع يده فوق جبهته يرتمى فوق المقعد من جديد .. الكلاب .. ماذا يظنونه .. هاجم الفساد . ولكن ليس لحسابهم . ليس لحساب أن يقع الشعب فى قبضة الخونة وعملاء « اتحاد الصناعات » .

مكافأة من رئيس الوزارة .. الرجل الذئب بدهائه يريد أن يمتص العناصر الوطنية .. يريد أن يخرسها بتوزيع المناصب عليها !!

زهيرة تقف أمامه مشدوهة لتصرفه . ونهض يمسك بها وأجلسها بجواره ثم انطلق يفضى لها بقراره . من جهة هو يرفض الرشوة . ومن جهة أخرى لا بد أن يدخل السجن . هناك بعض المنشورات لدى أحد الزملاء غير المعروفين للبوليس .. سوف يأتى بها ليوزعها بنفسه هذه المرة علنا ليدخل السجن .. وينقذ شرفه . ويحسم المعركة !

كانت تصغى إليه وخيبة الأمل فى قلبها .. لم تنفوه بكلمة . ولكن دموعها تولت الإجابة . وارتمت فوق الوسادة تشهق بنحيبها .. أحس عبد الغفار بالألم يعتصر قلبه وهو يقاوم دموعه .. ثم أمسك بساعدها يرفع رأسها . كانت الفكرة قد اختمرت فى ذهنه رهيبة بائسة ..

– (زهيرة .. اسمعى . لست متبلدا . أعرف أننى أشقيتك . لحظات السعادة فى حياتك معى نادرة . ولكن . لقد اخترت طريق . وأبدا لن أتراجع . ليست هناك أية اعتبارات ترغمك على أن يضيع شبابك معى . لكل إنسان حياته وله مطلق الحرية فى أن يجدف لسفينتها فى الاتجاه الذى يعتقد أنه الصحيح . أنت جميلة . وشابة . ومثقفة . عشرات غيرى يتمنون تراب قدميك ..) .

وتحاشى نظراتها المدهوشة وهو يواصل كلماته ..

– (زهيرة .. من الأفضل أن أعيد إليك حريتك . أن أخلصك . « سلوى » يمكن التفاهم بشأنها مع أخى رمضان . سأطلب منه أن يوافق على

أى وضع تجدينه فى صالحك بشأنها .. لن أشعر بالمرارة . تهمنى سعادتك أولا ..)

كانت زهيرة تحدق فيه مرتاعة .. ثم اندفعت تمسك بكتفيه تهزهما فى عنف ..

– (غفار . ما الذى قلته . ماذا جرى لعقلك .. اسحب كلماتك المخبولة . اسحبها بسرعة . تعودت أن أكون صادقة مع نفسى .. أنا حزينة لأنك تحطم حياتك وحياتى هكذا فى تهور . وبلا ضرورة . يعذبنى أن تجعل من نفسك شهيدا .. بينما المستقبل أمامك .. أشعر بالتعاسة لأن مثاليتك البلهاء تدفعك إلى حد الانتحار . هكذا بغباء فى رأيى . ولكننى غير نادمة لأننى أعطيتك قلبى ومصيرى .. لن أكذب فأقول بأننى أرتضى طريقك . ولكنى مستعدة لأن أمضى معك فيه مهما كان المصير لأننى أحبك ..)

وانخرطت تبكى بمرارة ويده تداعب خصلات شعرها والكآبة تطبق على روحه .

– (غفار .. لماذا ترفس نعمة جاءت تطرق بابك . وفوق هذا تستشهد بلا ضرورة .. للوطنية حدودها . إعط الوطن حقه . وخذ أيضا حق نفسك .. الذين ذاقوا السجن مرة أصبحوا وزراء .. وأنت إلى متى تحمل الصخرة . ليست جريمة أن تكون مديرا لمكتب وزير ما دمت نظيفا !)

– (زهيرة حاولى أن تفهمى .. إنها ليست نعمة تلك التى تريدين منى قبولها .. إنها خيانة . ماكنت أرفض منصبا لخدمة وطنى فى حكومة شريفة جاءت بإرادة الشعب لتحقيق أهدافه !)

– (لم أطلب منك أن تخون يا غفار . طلبت منك أن تؤمن مستقبلك .. ليس كل هؤلاء الذين فى مناصب الدولة خونة .. القديس يمكنه الاحتفاظ بشرفه حتى فى « الخمارة » ! !)

– (الوضع بالنسبة لى يختلف . ما يعرضونه على مسألة مساومة . لن أكون بجانب أعداء الشعب فى محنته) .

نظرت إليه كاسفة ولم تقل شيئا .. إنها تعرف زوجها جيدا .. لا جدوى من استمرار المناقشة .. عندما يتخذ قراره لن تستطيع قوة فى الأرض أن تثنيه عنه ! ! وعادت تنهمر دموعها !

جاءت سلوى الصغيرة تجرى من الشرفة وهى تقضم قطعة من الحلوى .. الضجة فى الشارع أمام بيت وحيد المملوك أثارت دهشتها فجاءت تنادى أمها لتشاركها « الفرجة » وفوجئت بوالدها فجرت نحوه والفرحة فى عينيها . مسكينة هذه الصغيرة . مثل غيرها من الأطفال لم تعرف سلوى هناء الأبوة . دائما كان نائيا عنها بمشاغله . إذا كان من الممكن أن يغفر لنفسه زواجه من زهيرة استجابت لنزوات عواطفه . فأبدا لن يغفر له ضميره أنه أنجب سلوى للعالم بدون أن يقدم أى ضمان لوجودها فيه .. زهيرة لم توافق على رغبته فى عدم إنجاب أطفال فى ظروف مثل ظروفه . عارضت رغبته بلهفة أنثى متفتحة .. توافقة لممارسة وظيفتها فى الأمومة !

وأمسك بالصغيرة يحتويها بين أحضانه وهو يغمرها بقبلات متوالية . ثم أفلتها وأخذ يقبل زهيرة التى اندفعت تشهق بدموعها . بفمه أخذ يرتشف الدموع من فوق وجنتيها وقد تقلصت أصابعها فوق كتفيه . وتخلص من قبضتها قبل أن تنهمر

دموعه . ثم لوح لها وللصغيرة وانطلق خارج الباب بخطوات سريعة . فى الشارع وجد العربات الخاصة قد تكاثرت أمام بيت وحيد المملوك . والوزير الشاب يقف بين جموع المهنئين . مزهوا .. سعيدا . كالعريس فى حلته الجديدة الأنيقة . وتراجعت خطوات عبد الغفار من المستحيل أن يواصل سيره بدون أن يراه وحيد .. لا يريد هو أن يراه . طريقه الآن يختلف عن طريقه .. وعاد أدراجه إلى العطفة الجانبية يسلك الطريق الآخر ! ..

كتبت فى يوليو سنة ١٩٥٤ ونشرت بصحيفة «المساء» فى أبريل سنة ١٩٦٥ .

صغيرة

وقفت على « الرصيف » تحت « تندة » المقهى . . صغيرة . . سمراء . ضامرة ، يرتعش كيانها فى انتفاضات متشجنة من شدة الرطوبة . . وقطرات المطر تنحدر متوالية من فوق رأسها وتبلل جلبابها . . مدت يدها اليمنى تنثر المياه من فوق شعرها . . بينما يدها اليسرى تسد فوهة « كوز الصفيح » المعلق بخيط من « الدوبارة » تحت إبطها حتى لا ينفذ الرذاذ داخله ! . .

ثم أمالت رأسها بحذر وأطلت داخل المقهى وجاستها بنظرات متنقلة . وللتو التمعت فى عينيها إحساسات مكتئبة . .

المقهى خالية من « النفايات » تماما . كأنما أقلع عن التدخين كل زبائنها ! . . غريبة ! . . فى مثل هذا الوقت عادة تكون المقهى مليئة بالنفايات المتناثرة فى أرجائها ! . .

لابد أن «جودة» . . صبى الأسطى علام . . سائق عربة النقل قد سبقها ! . . كل الظروف اليوم تعاكسها ! . . نفضت رأسها لتزيل قطرات المطر التى تتخلل شعرها . ومازالت الرعشة تسرى فى جسدها . . ومن جديد انطلقت نظراتها الطائرة تتفرس تحت المناضد . وبين أقدام الزبائن بدون أن تجرؤ على خطوة داخلية واحدة ! ! . .

« المعلم سالم » صاحب المقهى يجلس بجوار « البوفيه » عملاقا يزرع الخوف بنظراته المخيفة التى يرهبها الميدان بأسره ! ! . .

وارتد بصرها إلى الكوز تحت إبطها . فغامت أساريرها بالأسى ! !

إن حصيلتها اليوم من نفايات السجائر لا تكاد تصل إلى نصف المطلوب منها أن تلتقطه . . مهما كانت الظروف . . لابد أن يكتظ الكوز إلى حافته . . وإلاّ فالعذاب فى انتظارها ! . . هذا ما تعرفه جيدا . . لابد أن يمتلئ الكوز تماما . . كل مطلع شمس تسمع كلمات التحذير والتهديد بالعقاب لوعادت بالكوز ناقصا . . آثار العقاب فى كل موضع من جسدها تذكرها بأن النقص معناه إضافة المزيد من هذه العلامات ! !

وقعتك الليلة سوداء يا زينب . « مندوهة » مغتاظة منك لأنك بالأمس اندمجت مع أطفال الحارة فى لعبة « العريس والعروسة » . ونسيت ابنها بجوار باب بيت « أم السعد » حتى رفسه حمار زوجها فى بطنه وكاد يودى بحياته . . وقعتك سوداء . . ستجدها مندوهة فرصة . . الليلة . . وتخرج غيظها كدمات زرقاء فوق جسدك ! !

بعد الظهر عندما أسندت رأسها إلى جدار « طاحونة الخواجا برنابا » لتريح

قدميها من تعب السير المتواصل بحثا عن النفايات . . لم تكن تتوقع أن النوم سوف يدهمها . . فلا تصحو إلاّ و « الشيخ القرنى » يؤذن لصلاة العصر من فوق سطح « زاوية العارف بالله القرطبى » . . !

لم تنم بإرادتها . . قضت ليلتها بالأمس أرقة ساهرة . . خوفا من انتقام « مندوهة » . . لما حدث لابنها ! ! واندفعت الهواجس تسوط مشاعرها . .

إنها تعرف جيدا . . ما سوف يحدث لها . . عندما تعود إلى « العشة » بهذا القدر الذى جمعته من المقاهى . . والشوارع . . والأرصفة ! !

لدرجة أنها تفضل أن تبيت فوق رصيف « الميدان » . . فى العراء . . والصقيع . . والحشرات . . ومعاكسات صبيان « موقف عربات الأجرة » على أن تعود إلى هناك . . ليتورم صدغها من صفعات أبيها الأعمى . . وشراسة « مندوهة » امرأته . . صاحبة « السوابق » خريجة السجون . . « فتوة » حارة القبة .

كفت السماء نهائيا عن إسقاط مطرها . . وتحركت لتغادر الرصيف ، وهى تقرأ « الفاتحة » فى سرها للشيخ « القرطبى » ولى الله صاحب الكرامات متوسلة إليه بجاه النبى أن يمنحها مدده . . وبركته . . لتعثر على « كوم » من النفايات يسد الفراغ الكبير فى كوزها ! !

ولكنها عادت تتوقف من جديد عندما رأت « عمار أفندى » يخرج علبة سجائره ويقدم منها واحدة للأستاذ « جوزيف » أمين « شونة بنك التسليف » الذى يلاعبه « الطاولة » ويشعل لنفسه واحدة أخرى ! ! . . بينما « مدحت » الصغير ابن عمار أفندى يضع صفارته فى فمه ويخرج منها أصواتا تروق زبائن

المقهى فيداعبونه بابتساماتهم المشجعة ! . .

وتنبه « المعلم سالم » لوجودها أمام باب المقهى ، فسحب « مبسم الشيشة » من فمه . . وبسرعة اهتز شاربه وظهرت « كشرته » الرهيبة . . وزمجر يصرخ فيها :

– أنت . . يامقصوفة الرقبة . . غورى من عندك . . طول النهار قدامى بخلقتك التى تقطع الخميرة من البيوت . . وبصق بجوار رجل المنضدة . .

ثم أردف وقد ازدادت كشرته تقطيبا – « تحركى . . يا وجه النكد . . دائما تحجلين أمام المقهى مثل أبو الفصاد . . أمامك البلد واسعة . . جاءتك داهية » .

إنها لا تعرف لماذا يكرهها المعلم « سالم » لدرجة أنه لا يطيق رؤياها داخل المقهى أو خارجه . . لماذا يبغضها . . وهى لا تتردد أبدا فى قضاء أية حاجة يطلبها منها . . لماذا يمقتها الناس . . ويتشاءمون من رؤياها . . ما ذنبها إذا كانت دميمة بشعة الوجه . ؟ « مندوهة » امرأة أبيها . . تقول بأنها « طالعة » لأمها . . ولاتستطيع هى أن تصدق ذلك . . فهى لم تر أمها أبدا . . ماتت . . بعد ما وضعتها مباشرة . .

وهذا ما يجعل الناس يتشاءمون من نحسها .

« لولا أنها « فقرية » ما كانت أكلت أمها لحظة مولدها . .

دائما تقول لها « مندوهة » هذه العبارة ! !

وتوارت الصغيرة بعيدا عن نظرات المعلم سالم خلف ضلفة الباب ريثما يلقى عمار أفندى والأستاذ جوزيف بالنفايتين . متمنية أن يقذفا بهما خارج المقهى . .

لتتجنب شتائم المعلم وزعيقه . . ومن ثقب ضلفة الباب ظلت تراقب مصير السيجارتين . . عمار أفندى يجذب أنفاس السيجارة بعصبية وانفعال كدأبه دائما عندما يكون اللعب ليس فى صالحه . . عمار لا يطيق الهزيمة أبدا . . رغم أنه غالبا هو الذى يدفع ثمن « الطلبات » سواء أكان هو الغالب أم المهزوم ! ! ثم وضع السيجارة على حافة المنضدة . . واستغرق فى تفكير عميق . ونظراته تتطاير بين « خانات » الطاولة و « أقشطتها » .

ياعينى . . لقد أحرقت السيجارة أنامل « مدحت » الصغير . . عندما امتدت يده لتمسك بها فى غفلة . . والده . .

وصعبت عليها دموع الصغير . . وهى تتفرس فى وجهه المتورد . . وشعره الفاحم الطويل وقد تدلت خصلات منه فوق جبهته . . وملابسه الأنيقة . . ما أحلاها . . كل ما فيه رائع ونظيف ! وراودت قلبها أمنية فى أن تمسح له دموعه . . أن تلمس بيدها شعره . . أن تمر بها فوق نعومة خده . . ستغسل يدها من رماد النفايات قبل أن تفعل حتى لا تلوث نصاعة وجنته ! !

والتمعت فى عينيها كآبة عندما وجدت نفسها تقارن بين نفسها وبينه . . هو . . أكثر من يد امتدت تربت ظهره . . وتمسح دموعه . . وتهدهده . . ! حتى «عكاشة» الجرسون اندفع خارج المقهى واشترى قطعة حلوى ليسكت بها نحيبه . . وهى عندما يدوسها حمار . . أو تصطدم عفوا برجل فى الطريق . . تمتد الأيادى لتصفعها . . وتنطلق الألسنة تلعنها ! .

وغادر المعلم سالم المقهى فشعرت بالارتياح . . وانتزعت نفسها من وراء الضلفة . ودلفت إلى الداخل بخطوات متوجسة فى البداية . . ثم فى جرأة عندما

وجدت « عكاشة » لا يعترض على دخولها . . ووجدت بعض النفايات بجوار أرجل المنضدة التى يجلس عليها « عمار » أفندى . . وأخريات كانت تحجبهن المقاعد . . وقبل أن تشرع يدها للالتقاط باغتتها يد ثقيلة تعرفها جيدا . . وأزاحتها فى عنف ثم اندفعت داخل الكوز واختطفت أغلب ما به ! .

وتناهت إليها قهقهة الصغير ابن عمار أفندى سعيدة بطرافة ماحدث ! . .

دائما يحدث هذا . . واجتاح الغيظ المقهور كيانها . . لو كانت ولدا . . لعرفت كيف تؤدب « جودة » صبى « الأسطى علام » وتنتقم لكل ما يفعله بها . . لو كانت حتى فى مثل بدانته ! ! إنها لا تعرف من أين يخرج لها جودة باستمرار كأنها تنشق عنه الأرض ليفاجئها ويغتصب أغلب ما تكون أنفقت يومها فى جمعه من نفايات . . ولا يتورع عن ضربها لو اعترضت أو بدرت منها مقاومة . .

وفوق هذا يستعدى عليها صحابه من صبيان موقف عربات الأجرة يلاحقونها بالأحجار الصغيرة . . وكلماتهم الموجعة التى تعايرها بزوجة أبيها عشيقة كل الرجال ! ! . .

وسارت مقهورة متخاذلة . . تضرب الأرض بخطواتها . . وقد انطلقت خواطرها تتخيل ما سوف يقع لها عندما تعود بهذا القليل الذى بقى لديها . . والذى لا يمكن أن يفى بشراهة والدها فى التدخين سوف يمسك بها من شعرها وتنهال عليها صفعاته وركلاته . . وستتبرى « مندوهة » لتضربها فى كل موضع من جسدها . . وتتهمها بأنها قضت يوما فى « الصغرنة » مع عيال الموقف . . وأنها من صغرها « طالعة مايصة » لأمها . . وكلما اشتدت ضرباتها عنفا طلب

منها الأعمى مدمن « الأفيون » المزيد من الضربات . . لتربيها ! !

ومن خلال هواجسها وجدت نفسها تفكر فى الصغير ابن عمار أفندى . . لماذا ليس لها مثل حياته ؟ . . لماذا ؟ ! .

« وانكمش » السؤال فى أعماقها مهزوما . . ثم ضاع فى دوامة قلقها ومخاوفها . . ! النهار يخبو نوره . . وليست أمامها فرصة . . كل شىء ضدها . . حتى « الشيخ القرطبى » غاضب عليها . ولم يستجب لضراعتها والفاتحة التى قرأتها له ليمنحها سره وبركاته ! !

وتوقفت تنتحب فى نشيج لاهث متقطع . . تراودها فكرة عدم العودة . . ومن بعيد لمحت إحدى النفايات تلفظ أنفاسها فمسحت دموعها براحة يدها وواصلت سيرها . . ونظراتها الحادة المترصدة تذرع عرض الطريق ! !

كتبت فى فبراير سنة ١٩٥٣ ونشرت بمجلة «القصة» فى مارس سنة ١٩٦٥ .

العجوز وشجرة التوت

قررنا جميعا نحن غلمان « شارع القبة » أن نزوغ يومها من « كتاب الشيخ بكر » وأن ننفق يومنا بجوار « عم رشوان » عند شجرة التوت . . فلا أحد فينا حفظ المقرر عليه « تسميعه » لسيدنا من سور القرآن . . كنا بالأمس فى عرس لأحد الجيران . . أحياه الشيخ السيوطى وبطانته . . ونسينا فى غمرة استمتاعنا بالمواويل والمدائح ، والطقاطيق . . وأكواب القرفة . . إن « فلكة » الشيخ بكر تنتظرنا غدا ! ! فى الصباح عندما تجمعنا فى نهاية الشارع تذكرنا هذا . . واكتشفنا أننا لم نحفظ السور فقط . . بل نسينا أن نحضر معنا « الصرافة » . . الأجر الأسبوعى الذى يتقاضاه منا الشيخ صباح كل يوم اثنين نظير تحفيظنا القرآن .

فكرنا فى المسألة . . ووجدنا أن التغيب هو أسلم حل لنا . . سوف ننفق

يومنا بجوار عم رشوان . . صديقنا العجوز . . صاحب شجرة التوت . . نرتع بجوار المستنقع قرب كوخه . . ونتسلق الشجرة حتى يحين موعد إيابنا إلى البيوت . . وفى الصباح نحضر الصرافة معنا . . وينتحل كل منا للشيخ عذرا . . وبالطبع سوف تنسيه الصرافة غياب الأمس وتنجينا من عصاه الخيزران . .

وعندما اقتربنا من مسجد سيدى كمال الدين حيث يقع كتاب شيخنا تحت قبته سمعنا بائعة الفول النابت تحدث حفيدها الصغيرة بقولها :

– بالتأكيد . . عمك رشوان جرت حاجه لعقله اليوم . . ياحميدة . .

لم نعلق على الحديث أهمية . . فتصرفات عم رشوان دائما مثار الأقاويل . اعتقدنا أن معركة ربما تكون قد نشبت بينه وبين واحد من زبائنه كالعادة ، لخلاف حول ثمن « مقطف » من سعف النخيل . . أو عدد من الحبال التى يجدلها من ألياف النخيل أيضا . فقد كانت تلك هى صناعته التى يحذقها بإتقان ومهارة . . ورغم شذوذ طباعه وسلاطة لسانه . وضيق صدره بأية مساومة من زبائنه حول تقديراته التى لا يتنازل عنها أبدا . . رغم هذا كان كل الناس يتعاملون معه . . خصوصا فى مواسم المحاصيل . . حيث تروج بضاعته التى لايجيدها من العجائز إلا قلة . . العجوز أمهرهم . . وعندما اقتربنا من كوخه . . هالنا أن نجده مهتاجا زائغ النظرات . . يرتجف شاربه الأشيب . . ويتقفض جسده النحيل . ومع انتفاضاته . . وعلو صدره وهبوطه تهتز الشعيرات البيضاء فى صدره العارى . . المكشوف من ثوبه الأسود . . الذى لم نره يغيره أبدا . . كأنما ولد به . . وأقسم أن يغادر الدنيا به أيضا . . ثم استبدت بنا الدهشة . عندما وجدناه يجمع الحجارة وأنصاف الطوب من تحت جدار « ميضأة سيدى

كمال الدين » . . ثم يكومها تحت شجرة التوت . . بدون أن يجيب على أى سؤال يبتدره به الذين يعبرون الطريق الزراعى من الفلاحين . . إلا بنظرات مليئة بالعداء لصاحب السؤال . . ولكل شىء . .

ومن خلال صمتنا المرتاب . . خطر لنا بأن العجوز يجمع الأحجار من أجلنا نحن . . ليصدنا عن شجرة التوت . . خطر لنا هذا . . ولكن لماذا . . ؟ فالمودة بيننا وبينه وطيدة . . والعجوز يحبنا جميعا . . وأكثر لحظات حياته انبساطا تلك التى نكون فيها بقربه . . لماذا يجمع الطوب إن لم يكن ليقذفنا به ؟

ولكن « عليوة » زميلنا الصغير . . الذى يضحك طوب الأرض بأفاعيله الطريفة مع العجوز . . لم يوافقنا على اندفاعنا هكذا بسرعة فى اتهام العجوز . . فربما يكون جمع الأحجار لمسألة لا تخصنا . . فالعم رشوان رغم شذوذ تصرفاته . . رغم أنه يشتم جميع الناس . . بل يشتم نفسه . . إذا لم يجد أحدا يشتمه . . رغم هذا طيب القلب . . ويعزنا نحن غلمان كتاب الشيخ بكر . . ويخصنا بكل أسراره . . ولايجد غيرنا يحدثه عن ماضيه وأمجاده أيام العز . . عندما كان « شيخ منسر » ترهبه المدينة ونجوعها والمديرية بأسرها . . زمان . . عندما دوخ المديرية . . وأراها نجوم الظهر . . لولا أن تاب الله عليه على يد واعظ البلدة . . ومن يومها وهو يأكل لقمته بعرق جبينه . . حقا إنه يحب شجرة التوت إلى حد العبادة . . والويل لمن تحدثه نفسه بأن يقترب منها . . أو أن يتسلقها . . أو أن يجمع حتى ما تسقطه الريح من ثمارها . . ولكنه أبدا لم يصدنا نحن غلمان كتاب الشيخ بكر عن شجرته . . كان يتركنا نلعب بجوارها . . ونتسلقها . . وهو يجدل الألياف وضفائر السعف ويغنى مواويله . .

وكثيرا ما كان يجمع لنا الثمار بنفسه . . ويوزعها علينا . . فنتخاطفها منه فى مرح ومسرة . . وكثيرا ما كنا نوقعه فوق الأرض . ونحن نتعارك معه ونتجاذبه . . ويحاول كل منا أن يأخذ منه أكبر نصيب . . فكان يقهقه فى سعادة . . ويشتمنا فى حب بأسماء أمهاتنا اللواتى رباهن على يديه . . ولو كان يعرف أنهن سوف ينجبن أبالسة هكذا . . لكان قصف رقابهن صغيرات . .

ذكرنا عليوة بهذا . . وطلب منا أن نتريث فى اتهام العجوز بالغدر . . وخطونا نحوه جماعة . . كان مازال محتقن الوجه . . شرس النظرات . . ينتفض جسده . . وهو يجمع الأحجار ويكلم نفسه . . بدون أن يلتفت إلينا . . وهو يهذى بكلام غريب عن شجرة التوت . . وأن الذى « سيهوب » ناحيتها ستكون على يديه نهايته . . إن كان المهندس . . أو غيره . . أو حتى البلدة كلها . . وملعون أبو اللجنة . وأبو العمدة . وأبو البلد بحالها . . ولم نفهم شيئا من كلماته . . وغمرتنا الدهشة جميعا . . ماذا حدث لعم رشوان . . ؟ تذكرنا حديث بائعة النابت لحفيدتها . . الرجل يكلم نفسه . . لابد جرت لعقله حاجة . . فعلا ! . .

ثم كف العجوز عن التقاط الطوب . . وتوقف يلهث بشدة . . وهو يستجدى الهواء أنفاسا . . وعرفنا أن نوبة الربو دهمته كالعادة . . وهممنا بالذهاب إليه لمساعدته . . فقد تبخر خوفنا منه أمام آلامه . . ولكن نداء شيخنا الذى خرج فى تلك اللحظة أعاد خطواتنا إلى الوراء من جديد . . ووجدنا « الفلكة » فى انتظارنا . . وعدنا بعد العصر إلى بيوتنا متورمة أرجلنا . . ونسينا حكاية العجوز ، ولكننا فوجئنا بها على كل لسان .

بالأمس جاء العمدة . . ومعه مهندس المجلس البلدى . ورجال المساحة ، ولجنة من الخبراء لمعاينة قطعة الأرض التى يقيم عليها عم رشوان كوخه . . والأرض التى تجاورها . . حيث تقرر أن يقام عليها « مصنع النسيج » الذى كان من نصيب المدينة . . تنفيذا لخطة التصنيع . . وأن المدينة مشهورة بهذه الصناعة من قديم . . رأينا الفرحة المتفجرة فى قلوب الناس تقفز من عيونهم . . لقد تحقق حلم المدينة القديم . . العاطلون سيجدون عملا . . وطلاب الجامعة من أبناء المدينة يحدثون الناس عن المستقبل . . عن التغييرات التى سوف يحدثها المصنع فى المدينة . . ستقام عمارات سكنية للعمال . . ومطاعم ، وأندية . . بدلا من المستنقعات ، والقمامة وروث البهائم . .

ووجدنا الناس يتندرون بما حدث بين العمدة واللجنة من جهة . . وبين العم رشوان من جهة أخرى . . طلب منه العمدة أن يوقع على إقرار بإخلاء الأرض . . وأجابه رشوان بقوله : إن يده تقطع ، أرحم من أن يبصم على أى ورق . . أين يذهب لهم فى آخر الزمن . . وعندما قال له العمدة بأن هذه أوامر الحكومة . . أجاب رشوان بأن الأرض أعطتها له الحكومة نفسها . . فما الذى جعلها تندم . . وتنوى استردادها . . وعندما استغرب المهندس إجابته . . حكى له القصة من بدايتها . . كيف كان مجرما ترهبه الشياطين نفسها . . ثم تاب من تلقاء نفسه . . وأقلع عن السرقة . والسطو . . وصفى عصابته . ومأمور المركز ذاته هو الذى أعطاه قطعة الأرض هذه من أوقاف سيدى كمال الدين ليقيم فيها تقديرا لتوبته عن إزعاج الأمن . . إنه لم يغتصبها . . الحكومة أعطتها له برضاها . . شيخ الخفراء يعرف ذلك ، وأمام مسجد سيدى كمال الدين

أيضا . . والآن وقد أصبح عجوزا لاحول له ولاقوة . . يريدون انتزاعها منه هل كانت البلدة تضحك على ذقنه . . وشجرة التوت . . يمينا بالله . . ومقام سيدى كمال الدين سوف يقتلع قلب من يمسها . .

وطفق العمدة يناقشه ويحاول إقناعه بأن يوقع على الإقرار برضائه . . بدلا من « الدوشة » ووجع الدماغ . . فلا فائدة من المقاومة . . ستأتى قوة من المركز لتطرده برغمه . . ويمكنه بدلاً من ضياعه هكذا . . لا أحد يرعاه فى شيخوخته أن يذهب ليسكن مع ابنه « حماد » ساعى البريد لتخدمه امرأته . وأجابه العجوز بأنه لا أولاد له . . لقد تبرأ منهم جميعاً ، ولن يتطفل على أحد منهم لتسقيه امرأته العلقم . . لا لن يغادر هذا المكان إلا على « النقالة » . !

وعاد العمدة يرجوه أن يوقع ويخلصهم . . إنها مصلحة البلد بأسرها . . فهل يحارب المدينة . ويقف فى وجه مصلحتها بمفرده ؟ !

وأجابه العجوز ، بأن حرب البلدة ليس شيئا جديدا عليه . . لقد دوخها زمان . . وليست جدعنة منها أن تأخذ بثأرها عندما أحنت الشيخوخة والربو ظهره إلى الأرض . . وتدخل « عمار » أفندى ملاحظ الطرق والكبارى يحاول أن يقنع العجوز بأن المصنع لخير البلد كلها . . « وحسان » ابنه بدلا من دورانه ضائعا فى البلد . بعد أن أوقف المقدس « سمعان الشباكشى » أنواله اليدوية . . سيعطيه المصنع عملا دائما بلا بطالة . . ولكن العجوز ركب رأسه . . ليذهب حسان وكل أولاده فى ستين داهية . . فماذا أخذ منهم . . من منهم سأل فيه . . جميعهم « أنجاس شياطين » . . طفح الدم من أجلهم ، وعندما أصبحوا

رجالا . . « دور » كل منهم على امرأة . . وتركوه كالكلب . . يشتغل لخلق الله . .

وضاقت اللجنة بعناده ولجاجته . . بعد أن استظرفت الأمر فى البداية فأنذرته بأن قوة ستأتى صباحا لاستلام الأرض وإزالة الكوخ والشجرة . . وردم المستنقع . . وهو حر . .

هذا ما سمعناه من أفواه الكبار فى شارعنا . . وأحس كل منا بالأسى من أجل العجوز . . الفرحة التى كانت فى عيون الكبار بالمصنع . . كانت غما فى قلوبنا نحن . . إن شجرة التوت . . والكوخ . . والمستنقع أشياء لا تخص العجوز وحده . . شجرة التوت بالذات تخصنا نحن أكثر منه . . لنا معها ذكريات . . حلوة . . كنا نتواعد عندها عندما ندبر مؤامرة ساذجة . . وعندما نقرر أن ندخل فى خناقة مع غلمان الأحياء الأخرى . . أو عندما نزمع أن نسطو على العمدة لنسرق الجوافة والخوخ من أشجاره . . وعم رشوان كيف يمكن أن تختفى الشجرة من حياته . . إنها معشوقته التى خرج بها من الدنيا . . كما قال لنا . . كانت حبيبته فعلاً كنا نشاهده يربت على جذعها . . وينفض « بملاءته » التراب عن أغصانها . . بل كنا نراه يحدثها أحياناً ويسر إليها بكلام لا نفهمه . . وكان « عريفنا » الأعمى الذى ينوب عن سيدنا فى تسميع القرآن لنا يقول بأن الشجرة ليست شجرة فى الحقيقة . . إنها « جنية » عشقت عم رشوان . . وتقمصت شكل الشجرة . . وأنه فى الليل يعاشرها كما يعاشر الرجل زوجته . . وكان بعضنا يصدق هذا . . فالشجرة لم تهرم أبداً كغيرها من الأشجار وفى الشتاء لا تتعرى أغصانها من الأوراق مثل كل الأشجار . . كما أن ثمارها غير الثمار الأخرى . .

إن لها مذاق عسل النحل . . فلا بد أن الجنية هى التى تضع الحلاوة فى ثمارها . .

تداولنا فى المسألة وقررنا أن نساعد العجوز فى حربه مع اللجنة غدا . . سنقف بجواره . . لقد جمع الأحجار استعدادا للغد . ولن نتركه وحده . . سوف ترى اللجنة أن للعجوز ظهرا يحميه . . وحاولنا أن نلعب كعادتنا . ، ولكن هما ثقيلا كان يجثم فوق قلب كل واحد فينا . . فلم نستمتع بألعابنا . . وحتى حكايات « عميرة » بائع القصب لم نجد فيها الطلاوة التى كانت تبهرنا . . ونمنا . . وفى قلب كل منا غصة . .

وفى الصباح تجمعنا فى نهاية شارعنا . . وأكد كل منا للآخر بأنه لن يخون عهده فى دخول المعركة بجانب العجوز . . وذهبنا إلى هناك وكل منا قد عبأ جيبه بالطوب ولكن العجوز رفض معونتنا . . أبعد أن كان رشوان فى شبابه يتزعم عصابة من وحوش الرجال . . يقود الآن فى آخر الزمن فرقة من العيال . . ثم إننا سنجلب لأهلنا مشاكل مع اللجنة . . فعلا . . تذكرنا هذا . . الأفضل أن نقف على الحياد وقلوبنا مع العجوز . ونراقب المعركة من بعيد . .

ما أن رأى العم رشوان موكب عمال البلدية بمقاطفهم وفئوسهم . . يهبطون من عربة المجلس يتقدمهم الملاحظ . . حتى جن جنونه واندفع يقذفهم بالطوب . . والملاحظ يناشده أن يرعوى ويقلع عن جنونه بلا جدوى . . كان قد فقد عقله تماما . . وبدا أن عفريتا قد ركبه . . وأخذ العمال يهرولون هنا وهناك تفاديا لأحجاره . . بعضهم يشتم ويلعن جنونه ويتوعده بأن يقصف رقبته . . والبعض يقهقه ساخراً . . والكل يجرى هنا وهناك وعندما انفض جمع

العمال ، وتفرقوا وحدانا فى كل اتجاه . . طاشت يد العجوز وانهالت بالطوب شرقاً . . وغرباً . . وعيناه بلون الدم تماماً . وحلقه يقذف زبداً أبيض يتناثر فوق ثوبه . . وصدره ينخفض ويرتفع مثل كور الحداد . . وما زال يقذف الطوب بكلتا يديه . . بدا كأنما يرجم المدينة كلها . . ومن فمه تنثال الشتائم . . لا نعرف لمن يوجهها . . والمارة والعمال يطلقون قهقهاتهم تعربد من بعيد .

ثم خارت قواه . . ولهثت أنفاسه . . وتوقف يسعل فى البداية . . ثم مد يده يسند قلبه . . ولكنه فقد توازنه فارتمى على الأرض منهارا . . وقد احتقن وجهه وجحظت عيناه . . كانت أزمة الربو قد جاءته . . واغتنم العمال الفرصة فأعملوا فئوسهم من الشجرة . .

واقتربنا نحن الغلمان منه . . فنظر إلينا بحزن وهو يحاول أن يغتصب من الهواء أنفاساً لصدره المسدود المختنق . رأينا الحياة تنضب من عينيه . . ثم أغمضهما . . عندما سمع الفئوس تهوى فى جذع الشجرة عنيفة متوالية . وفى نفس اللحظة التى ترنحت فيها الشجرة . . ترنحت أجفانه . . وعندما مادت . . وتهاوت إلى الأرض . . كان العجوز قد لفظ أنفاسه .

كتبت فى ديسمبر سنة ١٩٦٤ ونشرت بمجلة «الثقافة» فى يونيه سنة ١٩٦٥ .

قابيل يخنق القمر

بالأمس كان القمر مختنقا فى سماء مدينتنا . من فوق أسطح البيوت . فى الدروب الضيقة والأزقة المعتمة ، انطلقت مواكب الأطفال تقرع فوق الصفائح القديمة وآنية النحاس تناشد «بنات الحور» أن يطلقن سراح القمر . وظل القمر مخنوقاً برغم ضراعة الصغار . ونواح الصفائح كصلوات بدائية لإله مات قلبه .

وتذكرت أنت . تذكرت سخريتك من جدتى . ومن المقدس دانيال «شماس كنيسة» «السيدة دميانة» المجاورة لبيتنا . تذكرتك وكتاب الجغرافيا بيدك . . تفسر لنا ظاهرة كسوف القمر . . والجدة تشتمك فى حب وتلعن المدارس التى تلقنك هذا الكفر . . وتعلمك الكتابة من الشمال لليمين فى آخر الزمن ! ! كان رأيها أن «بنات الحور» هن اللواتى يخنقن القمر لأنهن عاشقات

له وهو يتأبى عليهن . . أما المقدس دانيال فقد كان يؤكد لنا بأن « قابيل » هو الذى يخنق القمر انتقاما منه لأنه أضاء الصحراء ذات ليلة وكشف جثة « هابيل » لعيون الغربان التى نعقت وانقضت تنهش فيها وبذلك أيقظت الملائكة فوشت به لآدم .

تذكرتك ونمت . . فى نومى رأيت حلما . . رأيت يدك تطبق على عنق القمر ! لم أر وجهك . . كان مختفيا وراء سحب داكنة . ولكنى أعرف يدك . أصابعها . عروقها . والوشم فوق الكف . أعرفها . . يدك .

ماتت جدتك منذ أيام . قال الناس بأن جثتها طارت بالنعش من فوق أكتاف المشيعين . لم أستطع تكذيب الخبر . لأنى لم أسر خلف جنازتها . تخلفت أفتش فى حاجياتها . واستبحت لنفسى مسبحتها « اليسر » ذات الرائحة العبقة بما يشبه رائحة الكافور . وتراب المقابر والأضرحة . . وخرجت والمسبحة فى يدى أطرق باب بيت المقدس دانيال أعب مجانا من خمره المعتقة التى يجلبها له صديقه المبشر الأمريكى من كروم يافا والجليل . .

منذ ساعة عدت من بيت دانيال وما زالت أبخرة العرق فى دماغى . ووهجه فى عروقى . بينما تجرفنى مشاعر تواقة بشبق لأفرغ لك كل الأشياء التى تلهث داخلى . كما كنت أفعل أيام كنت تسكن نخاع عظامى . عندما كنا نعيش فى كنف أسرة متماسكة . نغنى فى مواسم الحصاد . . أبى . . وأمى . . والجدة « وسارة » والضيوف الذين كانوا يصطخب دائما بهم بيتنا الكبير العتيق . بطوابقه . ودهاليزه . لم يعد الآن يطرق بابنا أحد .

فمنذ سنوات والمرحوم والدك لم يعد هو العمدة . . بعد إفلاسه مباشرة . جاء

المأمور ومعاون البوليس والمشايخ . ونقلوا التليفون إلى بيت العمدة الجديد فى مشهد أشبه بالفضيحة . . !

زمان كانت مواكب الحكام ورجال الدين تتجه إلى بيتنا وتقتعد الساحة تحت شجرة التوت . . شجرة التوت مازالت راسخة . . تسخر من مياه الفيضان التى تلطم ساقها فى عناد . . كنت أعشق النهر حيث كنت تجذبنى عاريا لتعلمنى السباحة داخله . . وغرقت منك ذات صيف . وعندما انتشلنى الصائد العجوز . قلت لى بعد أن أفرغ المياه من جوفى . بأننى لو كنت ضعت منك فى جوف النهر ، لأشاع الناس الأقاويل وتكرر اللغو حول قابيل وهابيل . ولم أفهم ما تعنيه . . كنت أعرف الحكاية بالطبع . قرأتها فى كتاب المطالعة . ولكنى لم أفهم صلتها بحادث غرق ! !

نسيت أنا هذا الحادث تماما . . لولا أن ذكرنى به الصائد العجوز . . رأيته منذ عام يتسول على قارعة الطريق . وقد فقد بصره الرؤية .وعرفنى عندما تحسس يدى . ثم قال لى بأنك كنت تستطيع أن تنقذنى قبل أن تبتلعنى المياه . ولكنك تركتنى أغوص بدون أن تفعل شيئا . لولا أن جاء هو بقاربه فى اللحظة المناسبة . . وعدت يومها إلى البيت أستعيد ملابسات الحادث . وفى الليل رأيت حلما . . رأيتك بجوارى تقرأ لى قصة هابيل وقابيل فى نسخة مذهبة من توراة قديمة وقد نمت لك لحية كثة . وتلبس قفطانا فوق البنطلون . وطلبت منى بعد أن فرغت من القراءة بأن لا أصدق الحكاية . . المسألة بحذافيرها مجرد خرافة . . ليس هناك قابيل وهابيل . . لأن آدم لم ينجب إطلاقا . كان عقيما وأن « هيروديت » اليونانى قد اخترع الحكاية من خياله ! !

وصحوت بعد كلماتك مباشرة . . كان حلما . . أنت فى القاهرة . وأنا فى الصعيد . . أتذكر يوم أن جئتك فى القاهرة . . لم أستطع أن أغلق قلبى دون توسلات « سارة » من المستحيل أن تقتلع رياح الزمن ذكرى هذا اليوم من نفسى . . استقبلتنى بفتور . تجاهلت ذراعى الممتدتان لاحتضانك . . سألتنى زوجتك قبل أن يقدم لى الخادم كوب الشاى عن الفندق الذى نزلت فيه . . غامت الدنيا أمامى . وابتلعت ريقى أجيبها بأنى سأنام فى رحاب « الحسين » فعجائز بلدتى حملونى قراءة الفاتحة فى مقامه !

ونظرت إليك لأرى وقع سؤالها . لم ألمح أى تعبير يشى بالدهشة . . فنهضت بدون أن أتحدث إليك فى مسألة سارة . . ولبثت أسير فى شوارع المدينة مذهولا ينتهبنى الضياع . . سألت رجلا عن الطريق إلى المحطة فقد فقدت قدماى الطريق . . تفرسنى الرجل طويلا . . كانت ترافقه فتاة بيضاء مذبوح قلبها فى عينيها . ثم أمسك بيدى وقبضته الأخرى على رسغ الفتاة . . وسار بى داخل دروب متعرجة . وفى زقاق دامس الظلام شهر سكينا فى وجهى واغتصب كل ما فى جيبى . . ناشدته الفتاة أن يدع لى ثمن التذكرة فلطمها على وجهها . . فركعت تحت قدميه تضرع إليه أن يبقى لى أجر العودة . . وفى مقابل ذلك تتنازل عن حصتها من عملية الليلة . . وأعطانى ثمن التذكرة وانطلق بالفتاة وتركنى . .

اجتاحنى الخوف فاندفعت أجرى ملتاثا . مهبولا . وعندما قابلت رجل الشرطة ارتميت فوقه أخبره بحكايتى . فانطلق يقهقه فى جنون . . سألنى إن كنت من الصعيد . وعندما أجبته زادت عربدة ضحكاته « قريب لك اشترى التزام من قبل » ثم ابتعد عنى وغاب فى زحام الميدان ! !

تساءلت يومها وأنا أتجه إلى المحطة بإرشاد بائعة الخبز الصغيرة . ما الذى جعل « إبراهيم » هكذا . . فرغم أننى كرهتك بضراوة . . لم أكن مستريحاً لقرار ضميرى بإدانتك . . كثيراً ما فكرت بأن كل مخلوق له الحق فى أن يتصرف بما يروقه . . وأن أى إنسان ليس ملتزماً قبل الآخرين بشىء . ومن الحمق أن ندين أحدا بشىء خارج ذاته . لكل إنسان حياته وله مطلق الحرية فى أن يجدف لسفينتها فى الاتجاه الذى يعتقد أنه الصحيح . وأن الآخرين الذين يحملون تعاسة الإنسانية فوق كواهلهم نماذج شاذة . . مازالت تحمل رواسب اعوجاج ما فى تركيب التاريخ ! !

وعدت أنا لأتزوج سارة . . فقدت هى الأمل فى عودتك . . أجهضت لها القابلة الجنين برغمها كانت تتمنى أن يبقى لها فقد نسجته من صلبك . حاولت أن أبث فى قلبها الكراهية لك وفشلت . ما زلت تعيش فى دمها . . ولم أستطع أنا أن أقسر نفسى على كراهيتها . . دائما دافئة . وحلوة . . فى قلبها نبع من الحنان لا يغيض أبدا . . يلوح لى أن هذا النبع وجد ليروى آلاف الرجال بل آلاف الأجيال إلى أن تنتهى الدنيا ومن عليها . . إنها تعطى دائما بقابلية غريبة . ولكنك مازلت تفصلنى عنها . عن النفاذ لروحها . . إنها تدخلنى أغوار أنوثتها ولكنها تلفظنى إلى السطح كلما حاولت الاستيلاء على روحها ! !

قالت لى منذ أيام أنها لا تصدق أنك شرير إلى هذا المدى . كنت ساعتها أحدثها عنك . وأتساءل عن السبب الذى جعلك شريرا برغم أنك لم تهزم من أحد . . وليس العالم مدينا لك بأى صفعة . . قالت لى بأن الغائب حجته معه . . وأعطتنى ظهرها ونامت ! !

فى الصباح سألتنى . . لماذا أبيت أن أفضحك ما دمت أكرهك إلى هذا الحد . . ولم أستطع الإجابة حتى بينى وبين نفسى . . أنا إنسان يفتقد القدرة على فهم نفسه . مرات كثيرة أبكى عذاب العالم . وأجدنى مستعدا لأن أحتضن الموت فى سبيل أن لا تذرف عين إنسان دمعة . . عندما كنت صغيرا . . تقرأ لى أنت قصصا يتعذب أبطالها . . كنت أتمزق حزنا . . وأنا أعدهم فى سريرتى بأن أكون مسيحا من طراز جديد ينتقم لكل تعاسات الأزمنة . . الآن مازلت أعانى من هذه الأحاسيس ولكن فى نفس الوقت تخطر لى أفكار مغايرة . . مرات كثيرة عندما أواجه ضراوة الناس أجد نفسى مستعداً لكراهية كل شىء . وأتمنى لو أن تتاح لى الفرصة لأنسف العالم كله وأذروه هشيما . . قلت هذا لسارة فى المساء عندما عاودت سؤالها . . فجاوبتنى بالصمت ! !

منذ شهور مات والدك منتحراً . . خسر كل ثروته . . وعرفنا عذاب الإحساس بأننا أصحاب نعمة زائلة . . وانفض الناس عنا . ولم تعد « مندرتنا » مليئة بالضيوف من كل فج عميق لم يعد يطرق بابنا من الغرباء غير المحضرين ! !

مات تاجر القطن المفلس بدون أن يعرف سر خرابه . أنا أعرف . وأنت . أعرف سر تآمرك مع السماسرة نظير عمولة ضخمة . . فكرت يومها أمام رهبة الحادث ومضاعفاته . . أن أفضحك ، أن أوقفك عاريا وأرجمك . . لم أستطع . . رفضت الفكرة بإحساس سجين يعرف أن القضية التى يتعذب من أجلها زائفة ! !

كان الصمت يمزقنى من الداخل فلا أجد خلاصا غير أن أطرق باب دانيال

ليفرغ فى جوفى كؤوس العرق . . وعندما تنفذ الخمر داخل دماغه ينطلق يتحدث عن المسيح ويهوذا ويترنم بمقاطع من « المزامير » ويهذى بكلام غريب عن شجرة التين التى أورقت وعن قارورة العطر التى دهنت بها الخاطئة قدم الإنسان الذى طوب المساكين بالروح فساقه التجار فى موكب الحقد نحو الصليب . وعن المطران الذى رسم سمعان النجار قسيسا لكنيسة العذراء نظير ثلاثة خرفان وعشرة ديوك . وتجاهله هو الأرثوذكسى خادم الكنيسة القديم . . ثم تجرفه نوبة البكاء وتتشنج أعصابه ويقذف فى خارج بيته . . لأجد سارة فى انتظارى . سارة إنها عذابى . . هى الأخرى معذبة بشىء ما فى تكوينها . . إنها تعطى نفسها بحنان أنثى تذوب فى جسدى . ربما فى جسد الإنسانية كلها . . كما يلوح لى . . ولكنها غريبة عنى . روحها تحلق بعيدا . . دائما أشعر بها هاربة منى . . روح سارة !

أحيانا تقول لى بأنها تكرهك إلى حد الموت . . وأعرف أنها كاذبة . إنها مستعدة أن تقطع جسدها إربا فى سبيل أن تراك لحظة . أن يبصرها فراتك . . أن يمتصها فمك . أن تشربها مسامك . . عذاباتها أيضا تمزقنى !

عندما مات والدك قالت لى أمك . . إن كل شىء يموت . لكن الحياة تتولد من جثة الموت . فلا شىء يموت أبدا . . فهمت أنها تحرضنى لأنجب من سارة . . قلت لها إن قابيل لم يقتل هابيل فحسب قتل العائلة كلها . قتل حتى نسلها فى الغيب . . كان فى خاطرى أن سارة لم تتقبل أحشاؤها بذورى . نبات الأرز لا ينمو فى خط الاستواء . وفهمت أمك . . ولم تقل شيئا ! !

ليست خمر دانيال هى التى تدفعنى لهذه الثرثرة . زمان عندما كنت أسمع الحواديت الخرافية من المقدس دانيال وجدتك . عندما كنت تصطحبنى إلى سينما البلدية فى المدينة المجاورة لأشاهد معك «أفلام طرزان» كانت تنمو فى داخلى أشياء غريبة . . كنت أحلم بعالم لا ناس فيه . . أنا وحدى . . وحدى لا غير فيه . كنت أخرج من حصص الدين فى المدرسة لأهرع إلى المقابر شرق المدينة . . وأطلق العنان لأفكارى . أتأمل الخليقة . والعالم وقصة وجودنا على الأرض . . كنت أرتبك أحياناً وأتوه وأنا أدخل فى حوار ساذج مع أشباح غير منظورة . وبعدها أحاول أن أقنع نفسى وجاءهم الموتى تحديد من المقابر الخربة . بأن الوجود . والمدرسة . وبيتنا . ومحالج القطن . ومآذن المساجد وقباب الكنائس . والمقابر . . كل هذه أشياء لا وجود لها فى الحقيقة . . إنها وجد فى ذهنى فحسب . لا وجود لغيرى أنا . وعندما أموت تموت كل الأشياء معى . وربما لا أموت . ربما أكون أنا العالم . من أدراني ربما أكون الإله ذاته ! !

قلت هذا لسارة بالأمس . لم تقل شيئا فى البداية . وعندما أعدت الكلمات امتدت يدها تجس جبهتى . . ثم قالت لى أنت مريض . قلبك يختنق . قم معى إلى السطح لتشم الهواء .

وجدنا الظلام دامسا فوق سطح بيتنا . لم نجد القمر فى السماء . وانطلقت نظرات سارة تبحث عنه خلف السحب . وهى تقول لى . . مضى يوم بدون أن يظهر القمر . . يوم كأنه عمر الحياة . بنات الحور مازلن يختنقنه . . أجبتها . .

ربما . . ثم تذكرت دانيال . . وتذكرتك أيضا فاستدركت . . ربما لسن بنات الحور . . ربما يكون قابيل هو الذى يخنقه . ثم طلبت منها أن توقد شمعة ريثما يعود القمر ! !

كتبت فى يناير سنة ١٩٦٥ ونشرت فى مجلة «حوار» فى مايو سنة ١٩٦٦ .

رقم الإيداع	١٩٨٠/٢٥٦٩
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٩٩٤-X

١/٧٩/٢٠٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)